أَقوَالُ شَاهِدِ عِيانْ

محمد علي الشويهدي

أقوال شاهد عيان

قصص قصيرة

مؤسسة
الأنتشار العربي
Arab Diffusion Company

أقوال شاهد عيان

محمد علي الشويهدي

A WITNESS TESTIMONY

BY

MOHAMED ALI ESHOWEIHDI

LONDON - BEIRUT

Email: arabdiffusion@cyberia.net.lb.

P.o. box: 113/5752 - Beirut - Lebanon

ISBN: 1 84117 011 9

First Edition 1976

Second Edition 1999

All rights reserved. No part of this publication
may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or
by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise,
without prior permission in writing of the publishers

الطبعة الثانية 1999

الإهداء

إلى حبيبتي خديجة.

رفيقتي أمّ أولادي.. تلك المرأة العظيمة التي عانت في غيابي واحتملت في حضوري وسَمَت دوماً فوق كل توتراتي وحماقاتي ونزقي واحتوت بحب لا يضاهى وصبر لا ينفذ كل وساوسي وقلقي وإحباطاتي.

خفقة حب وتحية عرفان عند محطة «أقوال شاهد عيان» على طريق الرحلة الغامضة نحو المجهول.

«مـحَمّد»

بندول الزمن

بندول الزمن

ـ **تيك**.. تاك.. تيك.. تاك..

رتيب يا بندول الزمن الغادر، مملّ أنت وقاتل، لكنّك مقتول بالزمن الأبدي، ستصدأ، تتآكل، تنتهي، شأن كل الأشياء، والزمن باق.

ـ تيك.. تاك.. تيك.. تاك..

وانفتح الباب، خرج الطبيب ذو المعطف الأبيض، يتعثّر، عيناه حائرتان، تصفّح كل الوجوه المرصوصة على الكراسي، ارتدّ خطوة إلى الخلف، دفعه إلى الأمام خطوة نهدان نافران في صدر ممرضة شابة، استحى، استحت، قلت في خاطري، ما أحلى رحيق الحلمتين النابتتين في صدر شاب، ثم قال جدي في أعماقي، استح خزاك الله.

ـ تيك.. تاك.. تيك.. تاك.

همس الطبيب في أذن الممرضة، أشارت بسبابة بلورية صوبي، انتابني خوف، داهمتني رغبة في الفرار، جاءاني، يا إلهي، ماذا يريدان؟ إني خائف لأني صرت أخشى أن يكونا قد أدركا ما يدور في رأسي عن رحيق الحلمتين، وقفا بجواري:

ـ هل أنت زوج الأخت؟

وأشار ذو المعطف الأبيض نحو الباب الذي كان انفتح، لم أنطق، إذ كان يخاطب آخر في قاع أعماقي، هو أنا، لكنه ليس أنا الذي يحدّق في شفتي ذات النهدين النافرين، إلاَّ أن شفتيها انفرجتا عن ابتسامة عذبة، قالت:

ـ زوج الأخت التي ستلد؟

أجبت:

ـ نعم.

وكان يجب أن أقف، لكنني ظللت جالساً، شدّني ذو المعطف الأبيض من معصمي، نهضت وكنت متهالكاً، فالليلة البارحة كانت مضنية، قال في حزم:

ـ الولادة الأولى تكون في الغالب صعبة، حالة زوجتك صعبة، لا بد من إجراء عملية ولا أخفيك ستكون خطرة، خطرة وعلى مسؤوليتك، لكن الله معنا، وقّع هنا.. وهنا.. وهنا..

وقّعت، قضي الأمر، غمرتني تعاسة إنسان مذنب، كانت قاسية، بحجم خطيئتي، فحليمة كانت وردة رائعة في حديقة الحياة، أغراني شذاها دون باقي الورود، اقتطفتها شأن كل الرجال من حديقة الحياة، امتصصت رحيقها على مدى عام منك أيها الزمن الغادر، تكورت بطنها، انتفخ ساقاها، صارت تكرهني بينما أنفر منها أنا، فيا أيها الجنس الكافر، ليتك تموت في ذواتنا ويبقى الحب دفاقاً صافياً.

ـ خرِّف.

قال رجل يقبض على يد طفل لرجل آخر.

أضاف الرجل بينما كان يحدّق في عيني الرجل الآخر:

ـ المال والبنون زينة الحياة الدنيا، وليس ثمة عاقل يكره هذه الزينة، أنظر، هذا الطفل يحمل الرقم الحادي عشر، فلقد وفقني الله إلى امرأة كما أرنب، لا تعيش حياتها هدراً، كل حين تلد طفلاً رائعاً كهذا، والأرزاق على الخلاّق.

ـ تيك.. تاك.. تيك.. تاك..

بدت الممرّضة متوهجة الشفتين، متوردة الخدّين حين واجهتنا مهرولة، عندما تجاوزتنا تمكنّا جميعاً من معاينة ساقيها الجميلتين دون حرج، أما أبو الطفل الحادي عشر فقد نزع طاقيته وحكّ رأسه وقال محدّثاً الرجل الآخر:

ـ يا ما شاء الله!.

ثم قال يكمل حديثاً يبدو أنّه كان قد بدأه:

ـ يعلم الله أنني كرهته، حقدت عليه وما زلت أفعل وسأظل كذلك حتى أموت.

والتفت نحوي، ثبت عينيه في عيني، قال:

ـ لمَ لا تتكلّم؟!

قلت في خاطري ولمَ تحقد؟! ولمَ تكره؟! ودفعت إليه بابتسامة مجاملة، شعرت بأنّها جاءت سخيفة، تضايقت من سلوكي، وتضايقت من الرجل أكثر، قلت في خاطري أيضاً، لا أجد ما أحكيه عن أرنبتي الولود، ذلك لأنّها في عامها الأول، ولا أجد ما أحكيه عن مشاعري، فأنا لم أعد أحب، لم أعد أكره، صرت مجرّد وعاء نحاسي فارغ، بارد، بارد، يا أيها الزمن الغادر، يا أيها الزمن القادر.

جاءت يتقدّمها شرطي، وكانت تبدو كسيرة، في عينيها السوداوين ذلّ، في مشيها مهانة، تؤلمني جداً رؤية الجمال كسيراً، لكنني ماذا أستطيع أن أفعل بالألم لأجلها اختفت في الإدارة يتقدّمها الشرطي، سمعت الرجل يقول للرجل الآخر:

ـ إرعَ الولد.. سأعرف الحكاية.

فيا أيها الألم الكبير ترفّق بهذه الصبية وبكل صبية، يا أيها الألم الكبير ما خُلقت مثل هذه الأشياء الجميلة لأجلك، أو لكي يعسكر في عينيها ذلّ أو تربك خطواتها مهانة، لكنه الزمن الغادر، يشوّه كل جميل رائع، يحطّم، يدمّر يستهلك كل الأشياء، يقتل كل الأشياء.

سمعته يقول:

ـ لم أعرف الحكاية، لكنها دون شك، مفضوضة البكارة على يدي عاشق.

ونودي على الولد الحادي عشر، ومضى الولد في ثوبه الأبيض الفضفاض المزركش بالزعفران إلى غرفة العمليات، شئت أن اغتنم الفرصة:

ـ مبروك.. ختان؟

ابتسم في زهو وكأنه انتصر على صمتي:

ـ الله يبارك فيك.. ختان طبعاً.. ألا ترى أنه كبر بما فيه الكفاية.. وأنّه صار لزاماً على أن أختنه؟!.. أخوه...

ولم أنتبه لبقية حديثه، ذلك لأن تلك الصبية المسكينة، يتقدّمها الشرطي، بانت تجر قدميها بصعوبة بالغة، وكأنّها تنوء

بحمل خطايا المخطئين في كل الدنيا، تلقفتها العيون بخبث، لكن الشارع الكبير احتواها فاختفت.

قال الرجل للرجل الآخر:

ـ أبداً.. أبداً.. دعك من العقارات.. الإيجارات لم تعد مجزية، بع ما عندك وتاجر في مواد البناء.. إن أنت فعلت، ستعيش سلطان زمانك.

للرجل، قلت في خاطري، لأنّني كنت أخشاه، خرِّف، وهل للزمن سلطان أيها الرجل الغافل؟! إن هذا الزمن الغادر هو السلطان.

علت صرخة وليد، ترددت أصداؤها في أعماقي، الإناء النحاسي الفارغ صار رنّاناً، حليمة تلك الحلوة الوديعة صارت أماً، الفرحة في عينيها أكاد أراها، ولد تتمنّى أن تلد، وإنه لولد أكاد أراه، فالله رغم الزمن الغادر لا شك، يستجيب لأمانيها، تختال بين الجارات مزهوة بالابن البكر، بالعمر البكر، بالدفق البكر، أكاد أراها، والابتسامة الطفولية تنساب من العينين على الشفتين، تضيء الوجه، تطيل العمر، تطيل العمر.

وعلت صرخة أخرى، فانتابتني رعشة، حجر ناري قذف في أقصى أعماقي، تملكني خوف مرعب، ثم، هذا الإناء النحاسي عاد بارداً، بارداً يا أيها الزمن الغادر، يا أيها الزمن القادر.

ـ تيك . . تاك . . تيك . . تاك . .

وخرج الطبيب ذو المعطف الأبيض، جاءت من ورائه الممرضة الشابة ذات النهدين النافرين، وقفا قبالتي، اخترقت نظراتي المعطف والحمّالة إلى النهدين الشابين، يبدو أن ذا المعطف الأبيض كان يحدّثني، إذ أردف في أسى:

ـ . . ولكل أجل كتاب . . فليرحمها الله .

أضافت الممرضة الشابة:

ـ تجلّد . . اعتنِ بالوليد .

تابعت حركة شفتيها، شفتاها متوردتان شهيتان، صدرها نافر، حليمة التي ماتت، هي الأخرى كانت بشفتين متوردتين شهيتين، وكانت ذات صدر نافر، لكنها ماتت .

ـ تيك . . تاك . . تيك . . تاك . .

رتيب يا بندول الزمن الغادر، مملٌّ أنت وقاتل، لكنك مقتول بالزمن الأبدي، والزمن باقٍ، والزمن باقٍ . . .

حوار مزدوج

حوار مزدوج

الصمت يجثم على ليل المدينة، كذلك فعل الظلام مبكراً، لكن البحر وحده تمرّد، إذ تميّزت صفعات أمواجه لرصيف الميناء بصخب، يحتدّ لمرّات متكرّرة، أيضاً، بدا سطحه المترامي وكأنّه طبق من نور، ذلك، لأن نجوم تلك الليلة رصّعته فكسته بأضوائها الفضية حتى بدا ـ لو تأملته ملياً ـ يقاوم الظلام في بطولة وصبر، رغم فعل سحابات الصيف الصغيرة التائهة في سماء المدينة، وبأنفة، شأنه في تمرّده على الصمت الرهيب.

ذلك بالضبط ما كان يحدث خارجي، أو ربما هكذا بدت لوحة المقاومة في ليل المدينة للصمت والظلام وفق رؤيتي، لكنني على أية حال، كنت أرى اللوحة خارجي على النحو الذي وصفته، وكانت موحشة موغلة في الكآبة، ربما لأن الغربة في تلك الليلة بالذات اشتدت وطأتها على نفسي بعنف مفزع.

قلت إن ذلك ما كان يحدث خارجي، أما ما كان يحدث

داخلي فلم يكن ليختلف كثيراً، فالصمت يطبق على ضلوعي من الداخل بضراوة، وداخلي حتى القاع كان خالياً تماماً من أية ومضة، أي أنّه كان مظلماً على نحو رهيب، وفي الحقيقة، ساءني جداً أن تكون درجة رؤياي صفراً مجرداً من أيِّ رقم رفيق، وتضايقت كثيراً، إلا أنني ما لبثت أن اكتشفت أنني لا أفعل أكثر من أن أتألّم، ليحتويني ما يشبه الخدر.

ذلك بالضبط ما كان يحدث داخلي، وأستطيع أن أؤكّد أن لوحة استسلامي للصمت والظلام في ليل المدينة، كانت بالتحديد على النحو الذي وصفته، إذ أنّني تعودت على مدى علاقتي بالحياة أن أثق في الصورة عبر الرؤيا أكثر مما أفعل مع الصورة عبر الرؤية، حيث استطعت أن أخلص من تجاربي مع الاثنتين إلى أن حواسي تخدعني أحياناً، وعلى أية حال، بدت لوحة استسلامي تلك موحشة جداً، موغلة في الكآبة على نحو قاتل، ربما لأن.. الاستسلام في الغربة للأقدار، وفي تلك الليلة بالذات، أشد وطأة من الصمت ومن الظلام، بل من كل أحزان الأرض.

لست أدري متى أفقت بالتحديد من ذلك الخدر، الذي أخبرتكم أنه احتواني، لكنني أفقت على غضب هائل يعصف بأعماقي، حتى بدا لي ما يحدثه ذلك الغضب تماماً كالرعد الذي

تحدثه السحب في السماء، ولقد تأكّد لي هذا بعد فترة قصيرة، إذ شرعت أعماقي تتوهج بومضات حادة الإضاءة، كتلك الومضات التي تبرقها السحب عندما تتعانق لتبشر الأرض بالخير والنماء، ورغم أن الغضب الكبير استحوذ تماماً على كياني، وبالتالي على كل تفكيري، إلا أنني استطعت أن أنصرف عن كل ذلك الذي يحدث في داخلي إلى مرارة بطعم الحنظل في حلقي، ما لبثت أن فطنت إلى أنّها بقايا ذلك الإحساس الرهيب بالقهر.

قلت في خاطري، ها قد أنجب القهر غضباً دافقاً، وتلاشت لوحة استسلامي للصمت والظلام في ليل المدينة، وصرت كبيراً كالبحر في مقاومته الرائعة، وقلت في خاطري أيضاً، حيث إن الرؤيا وضحت تماماً أمام بصيرتي، فلا بدّ أن أشد بقبضة قوية زمام الفعل وأرسم بريشة الإرادة لوحة مقاومة إيجابية لأصير أكبر من البحر الكبير حقاً.

وعلى نحو ما رأيت وجه حبيبتي الذي كان ضحوكاً، ورأيت في عينيها حزناً مخيفاً، فانتابني فزع مفاجىء، ووددت أن ألوذ بصدرها من فزعي وأذوب فيها تماماً، لكن وجه حبيبتي ظل عابساً وعينا حبيبتي ظلّتا حزينتين، ثم تلاشت الصورة من أمامي، فيما بقيت أحدق عبر الأفق بعينين زجاجيتين اغرورقتا بالدموع.

وعاودني ذلك المشهد المأسوي الواقع على بعد ثمانية عشر

شهراً، عندما حزمت حقيبتي وأخبرتها في اقتضاب برغبتي في الرحيل إلى أية مدينة تطعمني كعكاً وتسقيني كرامة وتلبسني حريراً وتسكنني قصراً، وتمنيت عليها أن تلحق بي، لكنها بكت وتمنّت لي حظاً موفقاً، حيث إنها لم تعتد أن تعترض مشيئتي قط، إلاَّ أنها أخبرتني بأنها لا تستطيع أن تلحق بي بينما ستظل وفية لحبي حتى أعود.

هزّني الشوق فعلاً إليها، رغم أنه كثيراً ما ساءني بقاؤها بعيداً عني في الوطن، فلو حدث ولحقت بي لما سحقتني الغربة على النحو الذي وصفته في ليل مدينة يجثم على صدرها الصمت والظلام، أيضاً، رأيتها بعيني حبي زهرة لا شك تموت لو انتشلتها من ترابها وغرستها في تراب غريب مهما بذلت من جهد في تكييفي للبيئة المحيطة بها.

لا أستطيع أن أصوّر مدى تعاستي في تلك اللحظات حين اجتاحني ذلك الحنين العظيم إلى حبيبتي ولا حين اشتقت على نحو عنيف إلى تلك الطمأنينة الرائعة التي تستحوذ على كل كياني عندما ألقي برأسي على صدرها وأستغرق في نوم عميق لذيذ، كطفل لجأ إلى أمه الودودة في لحظة ضنك يستجير بحنانها من قهر أكبر من طفولته.

كنت إذن تعيساً على نحو مريع، لكن الغضب ظل مشرقاً في

أعماق ذاتي، فشرعت أفكّر في حياتي على غير تراب مدينتي، حيث استطعت أن أنجح في عملي وأجني الكثير من النقود وأشبع الكثير من الرغبات وأستمتع فوق كل هذا بحقوق آدميتي، إلاَّ أنني كنت أحسّ دائماً وعلى نحو غريب، إحساس من يبني قصوراً رائعة من الرمل، بلا أساس، معرضة لمجرد موجة صغيرة كي تنتهي إلى الأبد، أيضاً، كنت أحس بأن كل ما يحيطني من سعادة وبحبوحة ليس سوى افتعال للسعادة وتصنّع للبحبوحة، ذلك لأن شيئاً في داخلي، ظلّ يؤكد على نحو موصول افتقادي المطلق للطمأنينة التي كنت أستمتع بها على صدر حبيبتي في وطني، وحرماني من الركيزة الأساسية للسعادة الحقّة.

قلت، إذن، أنا لست سعيداً على الإطلاق، وإن كل ما بذلته من جهود مضنية من أجل النقود ليس سوى هدر لطاقتي ووقتي، وبدا لي رحيلي عن مدينتي حماقة كبرى، وعند هذا الحد بالضبط ارتعدت وكأنني اكتشفت على نحو مفاجيء أن كارثة ما قد حلّت بي.

ومضيت أحدّق في البحر الكبير، وعلى نحو ما داهمتني رغبة مفاجئة في النحيب لم أستطع أن أكبحها، وبكيت بمرارة، كطفل يعي تماماً حقيقة ما يحدث لكنّه لا يملك قدرة يصنع بها القرار، الذي يقيه دواعي البكاء، ومسحت دموعي بكفي، فلست طفلاً

على الإطلاق، وخطرت لي حكاية ذلك المواطن، الذي عاد كهلاً إلى مسقط رأسه بعد أربعين عاماً قضاها على غير تراب مدينته، وعندما سئل عن سبب عودته، أجاب في طيبة، بأنه عاد لكي يموت. فذهب سائلوه الخبثاء إلى أبعد من المعنى المباشر الذي عناه الكهل العائد، ورغم تعاطفي مع مشاعر الشيخ العائد، إلاَّ أن ما ذهب إليه سائلوه بدا لي وجيهاً على نحو ما، فنحن لا نحقق ذواتنا غالباً في المدن التي أنبتتنا، بل نحيا فيها موتى حتى نموت تماماً.

وانتابني فزع مريع، ذلك لأنه بدا لي أن التسليم بهذا المنطق يعني تكريساً لغربتي، وصدّاً لحنيني وإغراقاً في مزيد من الضياع، وبدا لي وجه حبيبتي متجهماً بعينين قاسيتين وشفتين مزمومتين، ورغم هذا، اجتاحتني سعادة مفرطة، وكأنني ألقاها فعلاً بعد كل ما عانيته في غربتي من عذاب، وعندما اختفت تماماً، عادني شوق رقيق إلى لقياها، ظللت أتلذذ باستحواذه على ذاتي لوقت طويل.

ـ سأفقد كل ما اكتسبته في غربتي، لكنني سأستعيد تلك الطمأنينة الرائعة على صدر حبيبتي.

هكذا قلت لنفسي بينما كنت أقرّر الرحيل إلى مدينتي، ورغم أن خسارتي بدت لي كبيرة مؤلمة، إلا أنني كنت أصنع القرار

بحماس، وبدا لي ـ عندما كنت أصنع ذلك القرار العظيم ـ أنني أصنع، لأوّل مرة منذ رحيلي عن وطني، شيئاً طبيعياً ورائعاً بحقّ، وعالجت ألمي بيقيني أن كل ما حققته في غربتي من مكاسب لم يكن طبيعياً، وأن القرار الذي انتهيت إليه قرار حتمي وطبيعي، وأن كل ما كنت أفعله خلال معاناتي في الغربة لا يتعدّى تأجيل حلول تلك اللحظة الرائعة التي أنجبت قرار العودة إِلى موطني.

وانتبهت إِلى أن شمس اليوم التالي أرسلت من بعيد خيوط فجر يوم جديد، وبدا لي حوض ميناء المدينة، بمصابيحه ذات الأضواء الصفراء، وقد تدثّر بعتمة ضباب ذلك الفجر، بينما احتوى البواخر والمراكب والقوارب، كأمّ عظيمة تحتوي في إغفاءة الفجر صغارها، لكن الشمس ما لبثت حتى غطت بردائها الذهبي كل الأرجاء، فبدت الأشياء مشرقة بهيجة رطيبة، واستيقظت الأم وصغارها على ضجيج حياة يوم آخر، وعمّ الصخب، حيث علت مزامير العربات وأبواق السفن ودفق الحياة، ونهضت فمضيت صوب إحدى السفن، ركبتها جذلاً، وخاطبت ربّانها في بهجة حقيقية:

ـ سيدي الربّان سأعود معك إِلى مدينتي..

وعندما تحركت السفينة في وقت لاحق صوب الوطن، كنت قد بصقت تلك المرارة التي هي بطعم الحنظل في حلقي،

وتحلّلت تماماً من كل الأحزان، وقهرت ذلك الإحساس الرهيب بالظلم، ومضيت أرسم بريشة الإرادة أروع لوحة للمقاومة الحقّة، وحين لاحت من بعيد عبر الأفق شواطىء مدينتي، كان قد تأكّد لي تماماً أن نواة أزرعها في تراب وطني وأرعاها فتثمر بعد مائة عام، هي دون شك، أعظم من كل نخيل العالم، ذلك لأن جذورها ستضرب في الأرض التي أنبتتني، وعاودتني تلك الطمأنينة الرائعة التي افتقدتها على مدى ثمانية عشر شهراً، وبدا لي وجه حبيبتي ضحوكاً بعينين ودودتين، وبدوت ـ أنا ـ بينما كانت السفينة تشق مياه البحر الكبير صوب مدينتي، كبيراً، كبيراً كالبحر.

الثمن

الثمن

دفع باب الشقة في عصبية ودلف إلى الردهة مسرعاً، فاستقبله صغاره بابتهاج طفولي، وتحلّقوا من حوله يتساءلون:

ـ بابا.. ماذا أحضرت معك؟.. بابا.. هات أرنا ما في داخل الكيس؟!.. بابا..

ورمى بالكيس الذي يحمله إلى أكبر الأطفال سنّاً، وفلت مندفعاً صوب حجرته دون أن يفتقد عصاماً أصغر أطفاله الذي ينام في فراشه مريضاً، وصرخ بأعلى صوته منادياً زوجته:

ـ اسمعي يا.. أنت.. يا هوه.. الغداء..

ولم تجبه زوجته، خلع معطفه ورماه حيثما اتفق، ثم جلس على حافة السرير يعمل بيديه الاثنتين في حذائه، لكنه ما لبث أن عاد إلى مناداتها:

ـ اسمعي.. يا هوه.. تعالي..

وجاءت تجر خطاها، وقفت قبالته، تساءلت في أسى:

ـ نعم؟

ـ الغداء.. الغداء بسرعة..

ـ الغداء على النار.. سيتأخّر قليلاً..

ـ يتأخّر قليلاً؟ يا للمصيبة.. إنني على موعد لتوقيع عقد.. عقد هائل لن يقل مكسبه عن عشرين ألف دينار.. تصوّري.. ولكن كيف يتأخّر الغداء؟ ألا تساعدينني ولو بالقليل..

قالت وقد كادت أن تدمع عيناها:

ـ اسمع يا رجل.. عصام مريض جداً.. مرض عصام هو الذي أخّرني.. درجة حرارة عصام مرتفعة جداً.. عدد مرات إسهاله كثيرة جداً.. الدواء الذي أحضرته من الصيدلية لم يفد شيئاً.. خذه إلى الطبيب.. أرجوك..

ولم تؤثّر فيه كلماتها، أحسّ وكأنّ عصاماً الذي تتحدّث عنه إنسان غريب لا يعرفه، ولكنه رأى أن يبدي قليلاً من الاهتمام:

ـ عصام.. أين عصام؟.. لقد افتقدته..

وابتسمت الزوجة في أسى:

ـ على بعد صفر منك.. كدت تقعد عليه..

والتفت فوجد الصغير مسجى على الفراش بجانبه، يغط في نوم قلق، مرّر راحة يده على جبينه، حدّق في وجه الصغير ملياً ثم همس مطمئناً زوجته:

ـ بسيطة.. بسيطة بعون الله.. أعطه هذا الدواء الذي أحضرته وسيشفى شأن كل إخوته.

وتألمت الزوجة، لكنّها لم تكن تملك أن تفعل شيئاً، فجرّت خطاها صوب المطبخ حيث تجمع بقية الصغار يصخبون ويتقاذفون حبّات البرتقال وأصابع الموز التي كان قد أحضرها أبوهم، وعزّ عليها أن يغيب عصام عن صخب بقية إخوته، وكادت أن تذرف دمعة، إلاَّ أنها شاءت أن تكابر شأنها دائماً، فجمعت حبات البرتقال وأصابع الموز ثم دخلت المطبخ.

وتحرّك الزوج نحو الغرفة الأخرى بعد أن أقلقته حشرجة أنفاس عصام وخطرفته، ووقف في الشرفة المطلّة على الشارع الرئيسي، وعمل فكره في الصفقة الرائعة التي ستضيف إلى رصيده في المصرف آلاف الدنانير، وقرّر أن يبتاع عربة جديدة فخمة تليق برجل أعمال ناجح، ودارة في مدينة الحدائق بأثاث يستورد خصيصاً من إحدى عواصم الغرب، وخطرت له فكاهة أحد أصدقائه:

ـ وزوجة صغيرة جميلة.

فابتسم، ذلك لأن زوجته صغيرة وجميلة، وأطفاله من أروع الأطفال في كل العالم، وقلبه لا يعمر بغير حبّهم جميعاً، حتى أنه لا يبالي بكل ما يدفعه من صحته ووقته في سبيلهم.

داره ستكون أفخم دار، زوجته وأطفاله سيعيشون في بحبوحة، سيلعبون.. بالمال وسيسعدون كثيراً.

وانتزعه من دوامة أفكاره مشهد طريف لعربة صغيرة يجرّها حمار، وقد ركبها رجل وطفلان صغيران، أمسك أحدهما بقفة مليئة بالخضروات بينما انهمك الآخر في الحديث إلى أبيه الذي كان يبدو مبتهجاً، وتصوّر الأم بكوخ في أحد أطراف المدينة تنتظر وصول القافلة الصغيرة السعيدة بلهفة، وتمتم في حيرة:

ـ دنيا.

وارتدّ إلى الخلف فاصطدم بالزوجة التي كانت تتابع المشهد في حسرة، حدجها بعينين غاضبتين وصرخ في وجهها:

ـ الغداء.. أين الغداء؟

أجابته في برود:

ـ الصبر طيب.. اللحم ما زال نيئاً.

وأدرك أنها تهدف إلى إثارته.

ـ إنني أشقى من أجلكم دون أن تعبأوا.. إنني أتمزّق وأنتم

تمرحرن في نعمة تجهلون قيمتها وترفضون في عناد غريب أن تساعدوني..

حدّق في عينيها ثم استطرد:

ـ أجيبيني.. من أجل من أشقى؟

ـ أنت؟.. أنت تشقى من أجلنا فعلاً، لكنّك لا تعيش معنا.. أنت تعيش في عالم آخر غير عالمنا.. في دنيا مختلفة عن دنيانا وبعيدة عنها كل البعد.

دق الأرض بقدميه في غضب:

ـ كيف؟

ـ إنني أخشى ألاّ يعرفك أولادك بعد فترة.. فكل أيّامك تنفقها في السفر والعمل، هل فكّرت ذات يوم في أن تتفرّغ للبيت ولو لساعات قليلة؟... أبداً..

وأحس بأنّها تصيبه في نقطة ضعف، فقدماه لا تعرفان طريقهما إِلى البيت إِلاّ إذا كان جائعاً ليأكل أو منهكاً لينام، لكنه قرّر ألاّ ينهزم، فصرخ في وجهها:

ـ وجهك وجه فقر، وستظلّين دائماً في سعيك الحثيث نحو الفقر إِلى أن توقعيننا فيه.. اغربي عن وجهي..

وحدّقت في عينيه ملياً قبل أن تتحرّك، ومضى هو إِلى غرفة

الاستقبال فارتمى على أريكة، بينما امتدت يده إلى إحدى الصحف القديمة، وانتبه إلى أنّه لم يعد يقرأ حتى الصحف اليومية، إلاّ أنه لم يكترث، رمى بالصحيفة جانباً، تمطّى وداهمه النعاس، أفزعته صرخة مفاجئة، فاندفع عبر الردهة إلى غرفة النوم، وتوقّف عصام عن الصراخ وعانقت عيناه عيني أبيه في حب، وحاول أن ينهض لكنه لم يفلح، وخطا الأب صوب الطفل وانحنى على السرير، وقبّله في شفتيه الذابلتين، وراعه شحوب وجه الطفل فاعتراه قلق مفاجىء، والتفت إلى الأم التي كانت تقف على بعد خطوات:

ـ أعطه ملعقة من الدواء الذي أحضرته.

ـ الدواء الذي أحضرته غير مجدٍ، والطفل يجب أن يعرض على الطبيب.

وامتدت يد الطفل تداعب وجه الأب في إعياء، وانتابت الأب رعشة شاء أن يحاصرها:

ـ كم الساعة؟

ـ الساعة الثالثة والنصف.

ـ الثالثة والنصف؟ والغداء.. أين الغداء؟

ـ بعد خمس دقائق.

ـ حسناً . . لن أتغدّى يا سيدتي . . تغدي أنت وأطفالك . . وكفى . .

ونهض غاضباً . . وهمس عصام :

ـ بابا .

والتقت عيونهما ، وابتسم الصغير فبادله أبوه الابتسام ، وأحسّ بضرورة عرض الطفل على طبيب ، وقرّر أن يفعل بمجرد أن يعود .

ـ سأذهب الآن . . ميعادي في الرابعة .

ارتدى معطفه ، وانتعل حذاءه ، وهرول عبر الردهة إلى الشارع الكبير .

و . . . .

وعاد بعد ثلاث ساعات ، يقود سيارته بيد ويتحسّس وريقات العقد الموقّع من الطرفين بأصابع اليد الأخرى ، ونشوة غامرة تجعله يضغط على دواسة الوقود بشدّة في اتجاه البيت والأطفال والزوجة ، فبدا وكأنّه يطير في مركبة أسطورية ، دون أن يعبأ بأحد ، فكل المحيطات به أشباح لا يكاد يميّزها ، ووصل دون أن يدري ، واندفع من داخل سيارته دون أن يدري ، وهرول نحو باب العمارة دون أن يدري ، لكن الكراسي المرصوفة على رصيف العمارة ،

والوجوه الكالحة الحزينة المصفوفة على الكراسي جعلته يدرك أن شيئاً رهيباً قد حدث، وتعلّق في عنقه أكبر صغاره منتحباً:

ـ عصام مات يا بابا.. عصام..

وفاضت عيناه بدمعتين حقيقيتين.

أقوال شاهد عيان

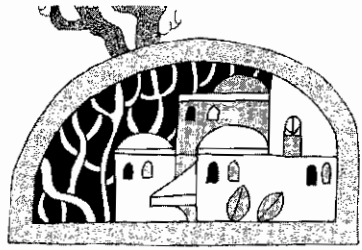

أقوال شاهد عيان

متكومة فوق فراش المرض، مجرد شيء، أي شيء، وجه أصفرَّ ثم اسودّ، أسنان عبث المرض بجذورها فتساقطت الواحدة بعد الأخرى، شفاه تهدّلت، شعر تساقط فقصر ثم ابيضّ حتى صار في لون الثلج، العينان ذبلتا، الجسد الفاره المصقول انكمش حتى صار في إمكان طفل أن يحتويه.

ـ دنيا..

قال شاهد عيان وأضاف:

1

في العام السادس عشر من بدء الرحلة، لم تكن «حياة» مجرد شيء، أي شيء، كانت وجهاً نقياً في لون الورد، بشفتين صغيرتين شهيتين، وشعر غزير أصفر، طال حتى اجتاز الخصر،

وأسنان ناصعة كحبات البرد، وجسد فاره مصقول رغم صغر السنّ.

كل رجل رأى «حياة» لا شك اشتهاها، بينما عشقها كل رجال الحي، لكن حياة في العام السادس عشر من بدء الرحلة لم تشته ذكراً، ولم تعشق أيّاً من رجال الحي.

ـ صبية غرة.

هكذا قال شاهد عيان.

. . في العام السابع عشر من بدء الرحلة، لم تكن ساذجة على الإطلاق «حياة»، إذ كانت تدرك جيداً أنها فاتنة شهية، وأن الله حباها بجمال خارق دون بنات الحي كلّه، وكانت على صغر نابها، تتلذّذ بنظرات الذكور التي تخترق الجسد الشفّاف المكتنز حتى العظم، وتنصب في العينين السوداوين إلى أعماق النفس، لكن «حياة» تتلهى، لأن «حياة» في العام السابع عشر، لم تشته ذكراً، ولم تعشق أيّاً من رجال الحي.

ـ غرة لعوب.

قال عنها شاهد عيان.

. . في العام الثاني والعشرين، عشقت «حياة» ووقع المحظور، وحلمت بالزوج والبيت والولد، لكن الفتى اليافع الذي عشقته «حياة» لم يشتهها في أي يوم، ولم يعشقها كغيره من رجال الحي. ظل يصب فتوره على نيرانها، يدلق غروره على كبريائها، ثم صار يحتقرها، يزدريها، فشأن الفتى اليافع لم يكن قط شأن كل الذكور.

وشحنت «حياة» بتجربة مريرة أحرقت كل نبتة شعور، فصارت مجرد دمية جميلة، قاحلة لا تنبت في تربتها بذور.

حاول الرجال، حاول الفتيان، حاول كل الذكور، لكن «حياة» باردة كالثلج، صامتة كالموت، لا تحب، لا تكره.

ـ عاشقة مجربة.

هكذا رآها شاهد عيان.

. . في العام الخامس والعشرين، تزوجت «حياة» من رجل ثري، أعطى أبويها كل شيء، ابتاعها في لهفة بكل ما يملك، ذلك لأن «حياة» لم تكن قد بارت بعد، ثمارها بالغة النضج، والرجل الفحل المسن شاء أن يستمتع بما أحل الله من طيبات، في

ما تبقّى له من أيام العمر تماماً كما شاءت «حياة» أن تستمتع بالمال الحلال.

واستمتعت «حياة» بالمال الحلال، واستمتع الفحل الثري بطيبات ما رزق، لكن الله شاء أن يتوفاه فمات.

ولم تحزن «حياة» شأن كل الأرامل، لم تلطم الخدود أو تشق الجيوب أو تنوح، فالثروة باقية وليس سواها وريث.

ـ أرملة لعوب.

هكذا وصفها شاهد عيان.

.. فيما تلا العام الخامس والعشرين من أعوام، صارت «حياة» أسطورة تلوكها ألسنة الفتيان، وتروي مغامراتها العذارى سرّاً في خفر، ذلك لأن «حياة» كانت تعشق الرجل من رجال الحي أو الفتى البكر المفتون، ليوم أو لأسبوع أو ربما لشهر، وتوظّف لخدمة عشقها «الشيطان»، والنقود، حتى إذا ما كبلت صيدها بالفتنة والمال، وصيّرته تابعاً والهاً، ارتشفته حتى الثمالة، وقذفت بما تبقّى منه خارج حدود عشقها المجنون.

ـ فاجرة مجنونة.

هكذا صنّفها شاهد عيان.

. . عندما بلغت الثلاثين، لم يعد مجون «حياة» سراً تحكيه العذارى في خفر، أو يهمس به مراهق لغرٍّ مفتون، أو تتناقله عجائز الحي وشوشة في البيوت الموصدة، إذ صار مجون «حياة» حديث كل العذارى والمراهقين والعجائز، علانية دون حياء، حتى خشي كل سكان الحي أن يصاب الأولاد والبنات بطاعون «حياة»، فأحاطوها بكراهية سوداء، ثم تهددوها بالقتل إن لم ترحل عن الحي.

ونُبذت، فحقدت «حياة» على الرجال، وعلى الفتيان والبنات والعجائز، وعلى كل سكان الحي، واسودّت الدنيا أمام عينيها اللتين كانتا جميلتين، وقرّرت الرحيل إلى حي غير ذاك الحي، مشحونة بالحقد والفجور.

ـ فاجرة حقود.

هكذا رآها شاهد عيان.

. . في العام الأربعين، وفي «غير ذاك» الحي، حجّت إلى بيت الله الحرام، وبدت ثرية ودودة متعبّدة، تصلّي لله في كل وقت، وتعطي من مالها الكثير، لليتيم والفقير والسائل والمحروم،

فأحبتها كل القلوب، لكن «حياة» لم تحب أحداً، إذ تعلمت الحذر، ووعت تماماً كيف تعامل البشر، وصار همّها أن تبحث عن سبيل مأمون لإخماد جذوة الجنس في الجسد المفتون، فتزوّجت من فتى في العشرين، أمضت في ربوع شبابه عاماً، ثم طلّقته، فقال سكان غير ذاك الحي، إن الزواج وفق الكتاب والسنّة أمر مشروع، وإن الطلاق كذلك أمر مشروع وإن كره، ومضت «حياة» في اللعبة الجديدة.

ـ مزواج مطلاق.

هكذا قال شاهد عيان.

. . في عامها الخمسين، ضجرت من حبّها القلوب في غير ذاك الحي، وخشيت الأمّهات على أولادهن من حبائل العجوز المتصابية، وتمنّت على الله كل عذارى الحي أن تموت، ثم حاصرتها تلك الكراهية السوداء، وطلب إليها أن تكف عن جنونها أو ترحل، وانفض من حولها كل الفتيان، ما عدا راغب في لذة عابرة، أو غافل لا يلبث حتى يفيق فيفر، وبدت «حياة» للعيان كمهرج شوّه وجهه بمختلف الألوان، والمرأة من غيّها تتصابى وتغوي من دون أن تصيب حتى أقل الفتيان، وجذوة الجنس تلك

اللعينة تلهب الجسد، وتعمي العينين اللتين كانتا جميلتين.

وحاصرتها تلك الكراهية السوداء بعنف، وطلب إليها أن ترحل أو تموت، وبكت «حياة» كما لم تبكِ امرأة من قبل.

ـ مهووسة تلك العجوز.

تألم لحالها شاهد العيان.

. . في عامها الستّين، تكومت فوق فراش المرض، مجرد شيء، أي شيء، وجه اصفرّ ثم اسودّ، أسنان عبث المرض بجذورها فتساقطت الواحدة بعد الأخرى، شفاه تهدلت، شعر تساقط فقصر ثم ابيضّ حتى صار في لون الثلج، العينان ذبلتا، الجسد الفاره المصقول انكمش حتى صار في إمكان طفل أن يحتويه، وكأنّ هذه المتكومة فوق فراش المرض لم تكن قط صبية غرة، تلذذت بنظرات الذكور تخترق الجسد الشفّاف المكتنز حتى العظم، أو عاشقة في ربيع الصبا تحلم بالحب والزوج والولد، وكأنّها لم تكن عاشقة مجرّبة أو زوجة مدلّلة تعبث بالنقود، أو امرأة ناضجة تنهل من معين الشهوة في نهم، كأنّها لم تكن. . قط. . كأنّ قلبها لم يخفق بحبّ، أو يشحن بكراهية كل البشر، قط، كأنّ المتكومة لم تكن قط «حياة».

وقاطعت «حياة» شاهد العيان بآخر أنفاسها تلفظها في وهن، فطأطأ رأسه وأردف في أسى:

ـ ها لقد انتهت الرحلة.. ها لقد انتهت المهزلة.

زغاريد الملائكة

زغاريد الملائكة

رغم أنّه تجاوز السبعين عاماً بشهور قليلة، إلاّ أنّه ما زال يدق الأرض بخطوات صلبة وقامة معتدلة، متحدّياً في شموخ سني العمر الشقية التي وإن تمكّنت من طلاء شعر رأسه ولحيته باللون الأبيض، ومن تغليف عينيه بسحابتين صغيرتين رماديتين تضطرانه إلى الاستعانة بعكاز يتحسس به الطريق متى ساءت الرؤية أمام عينيه، إلاّ أنها لم تتمكّن من فت عوده الصلب، أو إحناء قامته المعتدلة.

ورغم أن طبيعة حياته الريفية، تحتم ارتداءه ملابس متواضعة، تشوهت بطين الأرض وزرعها، إلاّ أنه كان أنيق الهندام نظيفه، تفوح منه رائحة طيبة تكسبه وشيب رأسه ولحيته وقاراً وهيبة.

هكذا كان يبدو «سيدي» الحاج عثمان في عيني «خالتي» مبروكة عندما كان يدق أرض الممر في «المصلحة» بخطواته الصلبة، إلى أن توقف واستند إلى الجدار الموازي للجدار الذي

تستند إليه «خالتي» مبروكة، قاعدة في انتظار دورها شأن كل الواقفين في الممر المزدحم.

حدّق سيدي الحاج عثمان ملياً في الواقفين والقاعدين وأدرك أن دوره سيتأخّر كثيراً، فتململ واعتمد على عكازه في وقفته، وعاد يجيل عينيه الضبابيتين عبر الوجوه المحتشدة في الممر الضيق، والتقت عيناه بعيني «خالتي» مبروكة، فبدت له عيناها ودودتين حزينتين، وأحسّ بشيء ما يشده إلى العينين المغروستين في وجه عجوز، ما زال يناضل من أجل مسحة من جمال، استنفدته سنوات العمر الطويلة.

قالت خالتي مبروكة مخاطبة «سيدي» الحاج عثمان:

ـ أقعد يا شائب.. إن دورك سيتأخّر ولن تقوى على الوقوف طيلة الوقت.

وبدت له ودودة، وبادلها الابتسامة التي طفحت على صفحة وجهها حتى فاضت بها عيناها، لكنه شاء أن يثبت لها أن سني العمر الشقية لم تفتّ في عوده، وأنّه ما زال قوياً قادراً على الاحتمال.

قال «سيدي» الحاج عثمان:

ـ لا.. لا داعي لأن أقعد.. سأظل واقفاً.

وصمتت خالتي مبروكة فلم تعلّق بشيء، إلاّ أن سيدي الحاج عثمان شرع يتأمّلها في ودّ، فبدت له في الخمسين إن لم تكن قد تجاوزتها، غزا الشيب شعيرات رأسها فكافحته بالحناء، ونال منها الفقر إلاّ أنّها حرصت على مظهرها من خلال ردائها النظيف المتواضع، الذي تلفه في عناية حول جسدها العجوز، وعاد ذلك الشيء الذي يشده إلى عينيها الودودتين الحزينتين يدغدغ أعماقه في حنو، وأحسّ بندم لرفضه دعوتها له بالجلوس، وشرع يفكّر في طريقة تصل ما انقطع من حديث.

وخرج من أحد المكاتب المجاورة عجوز آخر، يدق الأرض بعكّازه في غضب، واستوقفته خالتي مبروكة متودّدة:

ـ خير؟.. إن شاء الله خير يا سيدي حمد؟

ووقف «سيدي» حمد يتصفّح وجه العجوز التي كانت تبدي لهفة حقيقية، وانتبه إلى أنّه كان يقعد على الأرض في الممر بجوارها، وأنه بادلها الحديث لدقائق، فابتسم رغم غضبته، وأجاب خالتي مبروكة:

ـ أجل الموضوع إلى موعد آخر شأن كل مرة.. إن المصالح الحكومية تجيد فن المماطلة إجادة أصيلة.. كان الله في عوننا..

وانتبهت خالتي مبروكة إلى أن سيدي الحاج عثمان يتابع

حوارها مع الرجل في قلق، ذلك لأنه ربما.. ربما.. من يدري؟.

وابتسمت ابتسامة حقيقية صوبتها نحو «سيدي» حمد بعدما قررت أن تلعب ـ كأنثى ـ لعبتها، وشدّت سيدي حمد من طرف عباءته:

ـ اقعد.. أرح نفسك قليلاً.. لا يجدر بك أن تخرج وأنت على هذه الحال من الغضب.

وقعد سيدي حمد على أرض الممر بجوارها، وشرع يشرح لها من جديد تفاصيل موضوعه الذي بلغ حدّاً من التعقيد لم يبلغه أي موضوع آخر، وبدت خالتي مبروكة مهتمّة حتى بأدقّ تفاصيل الموضوع، مغفلة سيدي الحاج عثمان تماماً، وإن كانت تسترق إليه النظر بين حين وحين لتتبيّن مدى تأثير لعبتها عليه..

ومضى وقت استنفد سيدي الحاج عثمان خلاله ذخيرته من الصبر، وأفرغ أثناءه سيدي حمد ما في أعماقه من شكاوى وأحزان. ونهض سيدي حمد وودّعته خالتي مبروكة بدعواتها من أجل أن يكون الله في عونه، وقرّر سيدي الحاج عثمان أن يلقي بالعناد والكبرياء جانباً متى سنحت الفرصة، وسنحت الفرصة في التو، إذا ما لبثت خالتي مبروكة أن دعته إلى الجلوس بجوارها في لهجة مبطنة بالبراءة:

ـ تعال أقعد يا شائب . . إذ يبدو لي أنك لم تعد تقوى على الوقوف .

ودون أن ينطق بكلمة خطا خطوتين في اتجاهها، وقعد إلى جوارها مستنداً إلى الجدار ذاته الذي تستند إليه، واحتواهما الصمت للحظات، وقرّرت خالتي مبروكة أن تبادر بالحديث :

ـ مسكين ذلك الرجل الذي مضى منذ لحظات، إنه . . .

وأشاح عنها سيدي الحاج عثمان بوجهه، ونفث أنفاساً حارة محملة بكل ما اختزنه خلال انتظاره من غضب، وكأنّه يحتج على حديثها عن غريمه، وانتبهت خالتي مبروكة إلى هفوتها التي ما لبثت أن بدت لها تكملة موفقة للعبتها الأنثوية المحبوكة، فصمتت وابتسمت ثم استطردت :

ـ لا بأس يا حاج؟ . . .

ـ يبه . . وما الذي يجيء بنا إلى هنا غير البأس؟ . .

ـ دنيا . . لم ترحنا من مشاكلها ولا أراحت نفسها منا . .

ـ صدقت . . مشاكل . . مشاكل . . كان الله في عوننا . .

ـ مما هي مشكلتك يا حاج؟

ـ أرض . . أرض اشتراها والدي من الحكومة التركية عندما كانت تحكم البلاد، وعادت الأرض إليّ بعد وفاة والدي . .

سفحت من أجلها العرق إلى أن استصلحتها وزرعتها، فصارت تعطي ثماراً طيبة. أقمت فيها بيتي، وعشت على ترابها ألثم حباته عند كل صلاة شاكراً الله على نعمته، إلاَّ أنه تبيّن ـ منذ عام أو أكثر ـ أن الأرض غير مسجّلة باسم والدي.. تصوري...

واستوعبت خالتي مبروكة قضية الرجل جيداً، ومضت تناقشه بحماس دافق، مؤكدة له أحقيته في ملكية المزرعة والبيت قبل غيره، محاولة قدر جهدها أن تقترح عليه المسالك المؤدية إلى ضمان حقّه، حتى بدت في عينيه خبيرة بكل المسائل وفي كل المصالح الحكومية، لكنها بدت، وبدرجة أكبر وأوقع في نفسه، مهتمة غاية الاهتمام بأحزانه ومشاكله.

قالت خالتي مبروكة وكأنها استدركت:

ـ لكن.. لماذا لا توكل الأمر إلى أحد أولادك؟.. إن قضيتك تحتاج جهداً وصبراً...

وابتسم سيدي الحاج عثمان في مرارة:

ـ أولادي؟.. أين أولادي؟. بنت تزوجت منذ سنوات ولا تزورني إلاَّ في المناسبات، لأنّها تعيش كأخويها في المدينة.. الولدان أيضاً لا يزوراننني إلاَّ في المناسبات.. ويلحّان علي أن أترك المزرعة وأعيش معهما في المدينة، فهما لا يهتمّان أبداً بتراب الأرض الذي عشقته.

قالت خالتي مبروكة:

ـ يا سيدي.. البركة في رفيقتك.. أما الأولاد فهذا شأنهم.. يكبرون.. ويتزوجون ويمضون..

وعاد سيدي الحاج عثمان يبتسم في مرارة، ذلك لأن رفيقته مضت هي الأخرى إلى ربّها منذ سنتين، ليرحمها الله، لقد كانت حبيبة حقيقية، منحته الحب في سخاء، ومنحته الوفاء في غير ما تقتير، عملت معه في الأرض، وعملت من أجله في البيت، وما انفرجت شفتاها قطّ عن ابتسامة إلاَّ وكانت صدى لابتسامة بدت على شفتيه.. أما الآن.. فإنه يعيش في البيت الكبير وحيداً.. بلا رفيق أو أنيس، يمضي لياليه الطويلة الباردة في صقيع الريف، وأيّامه الشقية المضنية في الإشراف على العمّال.

وتأوّه في أسى، وكأنّه شاء أن يطرد كل هذه الأحزان ليخلص لخالتي مبروكة من جديد.

قال سيدي الحاج عثمان:

ـ إنني بلا رفيقة.. لقد ماتت منذ سنتين..

ورغم أن خالتي مبروكة شاركته أساه إلاَّ أنها أحسّت بفرحة تزغرد في أعماقها، إذ ربما.. ربما.. من يدري؟..

قال سيدي الحاج عثمان معتذراً:

ـ لقد نسيت.. ما الذي جاء بك إلى هنا؟

قالت في ودّ:

ـ ألم تقل إنه لا يجيء بنا إلى هنا غير البأس.. ابني.. إن ابني يرفض أن يدفع لي ما يمنعني من إراقة ماء وجهي في سبيل لقمة.. إنه يعيش وزوجته في بذخ ويتركني للغرباء.. ألم أقل لك إن الأولاد يكبرون ويتزوجون ويمضون..

وتساءل سيدي الحاج عثمان:

ـ ولكن أين تعيشين؟.. أعني مع من؟..

أجابت على الفور:

ـ مع ابنتي الوحيدة.. أعني طرف صهري.. منذ توفي الشائب.. رحمه الله..

قال سيدي الحاج عثمان:

ـ كان يجب أن تقيمي مع ابنك..

وردت في مرارة:

ـ ابني لم يعد ابني.. إن القياد في يد زوجته.. وزوجته تكرهني..

ونضحت عيناها بدمعتين حقيقيتين بينما غاصت في قاع العمر

السحيق، تستعرض تلك السنوات القصية، أيام كانت فتاة تزهو بزينة الحياة الدنيا، الولد والبنت والزوج.. والشباب والأحلام السعيدة بشيخوخة مرصعة بعدد من مرّات الحجّ إِلى بيت الله الحرام.. أيام.. ييه... يا أيام العمر..

واستغرق سيدي الحاج عثمان في عينيها الدامعتين، ليبحر عبر الدموع والأحزان إِلى أعماقها فيستقر في قاع ذاتها، أملاً جديداً، وعمراً جديداً، وحياة جديدة، ولم يفق كلاهما من استغراقه إِلاَّ على صوت المنادي يدعو خالتي مبروكة إِلى المكتب المجاور، فتململا، ومضت خالتي مبروكة إِلى شأنها، ثم عادت لتودّع سيدي الحاج عثمان، لكنّه شدّها من طرف ردائها فأقعدها إِلى جانبه، وهمس لها في ودّ:

ـ انتظريني.. سنخرج سوياً.. وربما سنرحل معاً إِلى مزرعتي..

وانتظرته، وخرجا سوياً، ولا شكّ في أنّهما رحلا معاً، إذ تناهت من الآفاق البعيدة زغاريد ملائكية مبتهجة بالحدث السعيد.

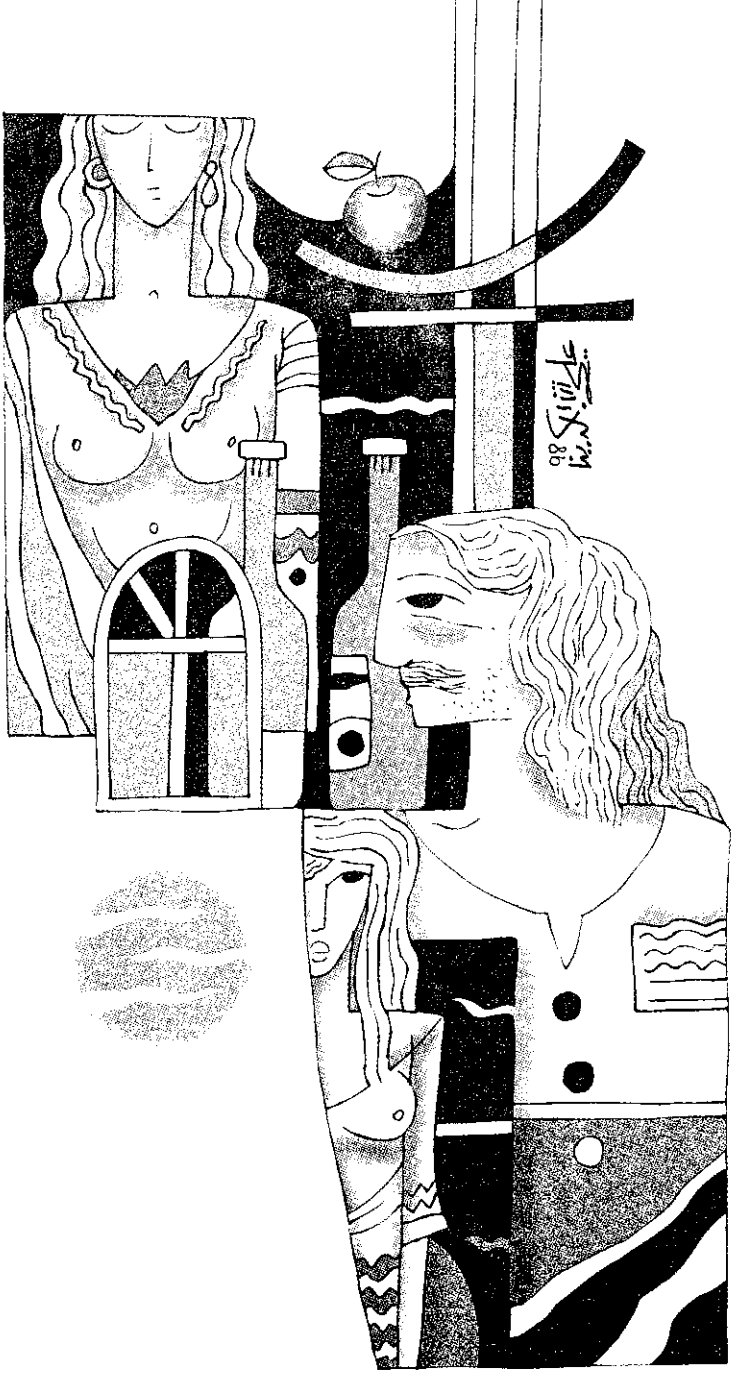

ربما تشرق الشمس غداً

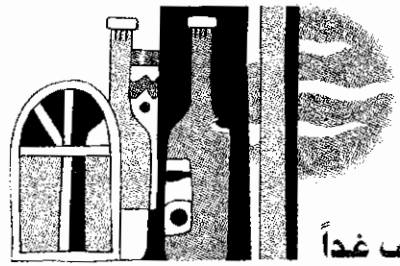

ربما تشرق الشمس غداً

كان يجر قدميه في خطوات بطيئة، محدقاً في الموجودات من حوله بعينين جاحظتين، وكانت نسمات المغرب الباردة تتسلّل عبر ملابسه، لتلسعه في مواضع مختلفة من جسده، فتدفعه بقوة لعدة خطوات علّه يصل داره مبكراً فيتجنّب صقيع الخريف، لكنّه لا يلبث حتى يعود إلى سابق مشيته البطيئة، متفرساً وجوه المارة والأشياء، مقاوماً تلك اللسعات الباردة يشد معطفه حول جسده تارة، وبتدليك أطرافه تارة أخرى.

وانتبه إلى أنه يمشي أمام منتزه المدينة مباشرة، ومنّى نفسه بأن يجد تسلية ودفئاً وكوباً ساخناً من الشاي في المنتزه، وتيقّظ إلى أن عدداً من أصدقائه ربما كان في أحد أركان المنتزه يتجاذب حديثاً شيّقاً، وأحسّ بشوق عارم إلى تلك الوجوه التي أنبتها الشارع ذاته الذي أنبته، وترعرعت في الشارع ذاته الذي ترعرع في أوحاله وكبر.

ـ طفولة شقية، تلك الطفولة، لكنّها رائعة ولذيذة.

وتخطّى عتبة المنتزه، وتصفّح وجوه المتحلقين حول المناضد، لكن الأضواء كانت خافتة وعيناه لا تقويان على الإبصار بحدة، لم يتبيّن أي وجه صديق، فاكتفى بالبحث عن مكان قصي يركن إليه، إلاّ أن صوتاً اعتادت أذناه سماعه جاءه منادياً:

ـ أستاذ.. يا أستاذ..

وتوقف، والتفت، والتقت عيناه بعيني أنور متلألئتين كنجمين، وتبيّن وجوه بقية المتحلقين حول المنضدة، وسعى متعثّراً عبر المقاعد المنثورة على العشب الأخضر إلى حيث يقعدون، ووقف الجميع، بادلهم التحية، جرّ كرسياً وقعد.

ـ شاي أم قهوة؟

ـ شاي.

وساد الصمت للحظات، وأحسّ سليم بغربة مؤلمة وسط تلك الوجوه التي أحبّها كثيراً، وألفها كثيراً، لكن الحياة شاءت أن تختط له طريقاً آخر غير طريقها، ففصلته عنها، وأبعدتها عنه، فصار لقاؤها يتم مصادفة، وتجاذب الحديث معها يبدو متكلّفاً ثقيلاً.

تململ أنور في مقعده ثم ثبت عينيه البرّاقتين في عيني فتحي وخاطبه ضاحكاً:

ـ أكمل . . أكمل لنا الحكاية .

وامتدت يد فتحي تسوّي خصلة شعر، يبدو أنّها لا تستقر أبداً كبقية خصلات شعره الفاحم الطويل اللامع الذي يغطي عنقه والجزء الفوقاني من كتفيه، ورفع فتحي رأسه، واستقرّت عيناه في عيني أنور :

ـ لم يكن الأمر ليستأهل بعد ذلك أكثر من جولة واحدة. كنت أقود سيارتي الصغيرة في شارع عمر المختار، لمحتها تمشي وحيدة هذه المرّة، أدركت أنها استجابت لإلحاحي، فتحايلت على الحارس الصغير وأبقته في البيت، تجاوزتها قليلاً وأوقفت السيارة، لا أخفي أنني أحسست برعشة، إلاّ أن يدها الصغيرة البضّة امتدت تفتح الباب، ولا أطيل، فلقد انطلقنا عبر الطريق الساحلي صوب توكرة .

قال أحمد الذي كان يبدو غارقاً في تصوّرات شتّى :

ـ هه . . ثم . . ماذا حدث؟

صرخ فتحي في زهو مداعباً :

ـ يا حمار . . متى تفهم؟

رد أحمد غاضباً :

ـ إنني قادر على تصوّر كل ما يمكن أن يحدث بين شيطان

قذر مثلك وفتاة مراهقة تلتقي ـ ربما ـ لأوّل مرة برجل في خلوة، لكنني . .

وأحس سليم ببذرة ما تلقى في قاع ذاته .

وانتبه على صوت فتحي :

ـ لأول مرة؟! . . أثبتّ بالفعل أنك حمار . . لقد كانت فتاتك المراهقة الصغيرة بخبرة امرأة في الأربعين .

ارتشف سليم من فنجان الشاي جرعة، وأشعل النار في سيجارته اليتيمة، وتثاءب، وعاوده الإحساس بالغربة، وقرّر أن يرتشف ما تبقّى في فنجان الشاي كي يتمكّن من الانصراف إِلى داره .

قال أنور :

ـ يبدو أنك متعب يا أستاذ سليم؟ . .

قال آخر كان يدق العشب الأخضر في انتظام بقدم كعبه العالي :

ـ في أية مدرسة يعمل الأستاذ . . سليم . .؟

تدارك أنور :

ـ معذرة . . لقد نسيت أن أقدّم لك الأستاذ سليم . . سليم

محمد. . إنه يعمل في وظيفة إدارية، لكننا منحناه لقب أستاذ منذ انخرط في دورات محو الأمية معلماً. .

همس أحمد في أذن فتحي:

ـ كم كلفتك الصفقة إياها؟

ـ خمسة دنانير فقط.

قال ذو الكعب العالي متسائلاً في خبث:

ـ قل. . قل. . يا أستاذ. . ما الذي يضطرّك إلى المساهمة في دورات محو الأمية؟

نطق سليم على الفور:

ـ الواجب.

ساد الصمت لحظة، وانفجر الجميع في قهقهة تجاوبت في أرجاء المنتزه، وأحسّ سليم في عمق بالإهانة التي لحقته. وكاد ينهض فيمضي، لكنه رفض أن يهزم بهذه السهولة، ثبت عينيه في عيني ذي الكعب العالي، فعاد الصمت ليسود المكان من جديد.

قال سليم:

ـ كان لدي ـ في الواقع ـ فائضاً من الوقت، عملي ينتهي في الثانية ظهراً، لا أجد ما أفعله لساعات طويلة، فكّرت في أن أمضي وقت فراغي أمام المرآة أتزيّن، أسرّح شعري أعنى بكعبي

العالي، وأمضي ما تبقّى من الوقت في تعقّب المراهقات، ولكني اكتشفت أن شعري قصير، ولم أكن أملك كعباً، ولا أمتلك الرغبة في تعقّب المراهقات، فقرّرت أن..

وقاطعه أنور الذي شاء أن يتدارك الموقف بسرعة:

ـ أصل الأستاذ.. مواطن صالح..

وانفجروا ضاحكين.

وساءه أن يسخر منه أنور على هذا النحو، وتحفز ذو الكعب العالي ليرد، لكن أحمد منعه بحركة من يده.

قال أحمد:

ـ ليس هناك ما يدعو لأن نتبادل الإهانات، فدعني أخبرك، بأنّك تهدر وقتك بينما تستطيع بالفعل أن تستثمره استثماراً جيداً.

ـ كيف؟

ـ إبحث لنفسك عن عمل إضافي.. شركات كثيرة تبحث عن موظفين في مستواك كي يعملوا لفترة ما بعد الظهر.. تأكد يا سليم أن المكسب الحقيقي هو ذلك الذي تجنيه أنت شخصياً.. فلو ـ لا قدّر الله ـ احتجت يوماً فلن تجديك أعمالك الخيرية شيئاً.

قال أنور متودّداً:

ـ ثم إن هؤلاء الذين تعلّمونهم لا يمكن أن يفهموا أبداً، لأنهم بفعل السنّ، فقدوا كل قدرة على الفهم.

وتراءت لسليم تلك الوجوه الكالحة الطيبة، وتلك العيون الحبلى بشوق متأجّج للمعرفة، وتلك الطفولة الرائعة المختبئة خلف جدار سني العمر الشقية، المتلصصة من خلال كلماتهم وحركاتهم ومنازعاتهم المبهجة في فصله المسائي.

قال سليم:

ـ أبداً يا أنور.. إن شوقهم إلى المعرفة كان دائماً حافزي لأن أستمر في تأدية دوري.. إن وجوههم الكالحة الودودة تضطرّك دائماً لأن تحبّهم وتخدمهم في إخلاص.

قال فتحي:

ـ نماذج..

رد سليم على الفور محتدّاً:

ـ نعم.

أجابه فتحي باسماً:

ـ لا أعنيك.. إنني أتحدّث وأحمد عن الحب فاتركانا وشأننا.. لو سمحتم..

قال أنور:

ـ نحن أيضاً نود سماع أحاديث الحب.

قال سليم:

ـ معذرة يا فتحي.

قال ذو الكعب العالي:

ـ لا.. لا.. يا فتحي.. إن هذه التي تحدّثنا عنها ليست من النماذج إيّاها.. هذه.. لا تستطيع أن ترغمها أنت أو غيرك على شيء، لأنّها هي وحدها التي تقرّر، ثم إنّها أيضاً ترفض النقود، إنما نموذج خاص بكل تأكيد.

قال أحمد:

ـ هذه رائعة بالفعل ما دامت لا تطلب نقوداً.

قال فتحي:

ـ رأيتها يوم أمس الأول في الحديقة العامة، كانت تقعد على كرسي حجري متمتعة بالأشعة الدافئة، بينما كانت تضع ساقاً فوق الأخرى متحدية العالم بأسره.

قال أحمد:

ـ ساق فوق الأخرى؟!.

قال فتحي:

ـ نعم. . لكن تصوراتك القذرة لن تصيب الهدف هذه المرّة، ذلك لأنّها كانت ترتدي سروالاً وقميصاً رجالياً.

وتثاءب سليم من جديد، وعاوده إحساسه الأليم بالغربة، وقرّر أن ينهض ولكنه فوجىء بمن يضع يده على كتفه، فالتفت، ثم نهض وصافح محمود بحرارة، وأقعده إلى جانبه، وعاتبه لانقطاعه عن زيارته، وبدا عتابه متكلّفاً ثقيلاً، ذلك لأن محموداً كان قد زاره ذات مرّة في مكتبه، فلم يجدا موضوعاً يصلح لأن يتحدّثا فيه.

سأل أحمد:

ـ سبع أم ضبع؟

أجابه محمود:

ـ لا سبع ولا ضبع.

قال أنور معلقاً:

ـ يا ويلنا إذن من الصناعة المحلية هذه الليلة.

قال محمود:

ـ بلغ سعر زجاجة الويسكي خمسة عشر ديناراً بينما ارتفع سعر «المحلي» إلى أربعة دنانير.

قال أحمد:

ـ كله زفت.

همس محمود في أذن سليم:

ـ ستسهر معنا الليلة.

ابتسم سليم:

ـ شكراً لا أستطيع.

نهض، فنهضوا جميعاً، مدّ يده ليودّعهم لكن أنور أصرّ على إيصاله إلى بيته، خرجوا جماعة واحدة، يتضاحكون ويتبادلون التعليقات، حشروا في سيارة أنور حشراً، انطلقت بهم السيارة في سرعة مجنونة.

همس سليم:

ـ خفِّف السرعة يا أنور.

ضجوا ضاحكين، وانقضت بضع دقائق رهيبة قبل أن تتوقف السيارة أمام بيت سليم.

قال محمود مجدّداً دعوته:

ـ كان بودّنا أن تسهر معنا الليلة.. فما الذي يمنعك؟

قال سليم:

ـ إنني متعب.. ثم إنني سأنهض مبكراً.

قال محمود:

ـ سأزورك غداً في مكتبك.

ابتسم سليم معتذراً:

ـ لكنني لن أكون غداً في مكتبي.. سأساهم مع إدارتنا في حملة التشجير في سهل الرجمة.

قال ذو الكعب العالي:

ـ حسناً تفعلون.. بعد أن تنمو أشجاركم، لن نضطر إلى توكرة من أجل خلوة مع فتاة.

وقهقهوا جميعاً، وانسلَّ سليم من بينهم وقد فاضت أعماقه باليأس والغضب، وفلح في أن يكبت غضبته، ورفع يده شاكراً أنور، وحيّاه أنور مودّعاً:

ـ لا تغضب.. إن جماعتنا تميل إلى المزاح كثيراً.

ارتمى على سريره. أغمض عينيه. أحس بنبض الدماء في عروقه وبما يشبه حبات التراب في عينيه، وانتابه دوار عنيف وتمنّى أن يستغرق في نوم عميق، لكن رأسه ظلّ يضج بالأفكار الصاخبة رغم الإنهاك الذي يصيب كل بدنه، ورغم آثار جهد اليوم الكامل من العمل المتواصل.

وبدت له وجوههم الشابة، وشعورهم النسوية الطويلة،

وكعوبهم العالية، وقمصانهم الزاهية. انعكاساً حقيقياً لأفكارهم المستهترة بكل المبادىء والقِيَم، ولحياتهم الماجنة الغارقة في اللهو والمتعة، وطفق يحس بتلك البذرة التي كانت ألقيت في قاع ذاته، تضرب بجذورها في أعماقه، تنمو وتكبر حتى تصير في حجم حبة البرتقال، وشعر بغصّة في حلقه، وبدمعتين ساخنتين تبللان عينيه.

وأدرك أن النعاس قد بارحه تماماً، وأن لا أمل في أن ينام، ومضت دقائق الليل بطيئة طويلة، قاتلة، أو هكذا بدت له، تماماً، كما بدا له وكأنّه لن ينتهي إلى انبلاج يوم جديد وكأنّ الشمس لن تشرق أبداً.

الرجل الذي مات

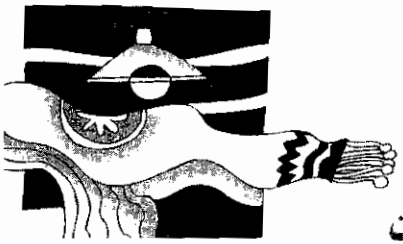

الرجل الذي مات

«**الرجل** يموت..

والطبيب المناوب غير متخصص..

والطبيب المتخصّص غير مناوب..

ومات الرجل..

دفن الرجل..».

صفت الكراسي على جانبي الشارع، وعلقت المصابيح الكهربائية الكبيرة، كنس الشارع وردمت البرك الصغيرة الآسنة بالتراب، وضعت جرار مليئة بالماء في زوايا متفرّقة، وبدأ الناس في التوافد للتعزية، بينما كانت ولولات النسوة وصراخهن يختلطان بطرقات عصيهن على الصناديق الخشبية في البيت الكبير.

حكيم كان يقعد على أحد الكراسي، عيناه تنضحان بالدموع،

أذناه ترفضان الولولات والصراخ وكلمات العزاء، عقله يرفض الموت، فالرجل الذي مات كان أبوه، وكان قبل أن يموت بيوم واحد في تمام صحته، يتدفّق حيوية وطموحاً ورجولة، وكان يحدّثه في أمر زواجه، وفي أمر القرض العقاري، لكنه مات، وهكذا مات، في طرفة عين انتهى.

وجاء رجلان، وقفا أمامه، صافحاه، تمتما بكلمات لم يتبيّنها، قعدا إلى جانبه، لم يتكلما لبرهة، ثم قال أحد الرجلين يحدِّث الآخر:

ـ لم أصدّق الخبر لأنني لم أكن أتصوّر أن الموت يمكن أن يكون بهذه البساطة، إنني كثيراً ما أحتار أمام لغز الموت، لا أجد إجابة شافية ولا حلاً مقنعاً، تصوّر الإنسان، تلك القوة الهائلة التي تتفجّر في العالم، تتعلّم وتنمو وتكبر وتطمح وتحب وتكره وتبني وتهدم، ثم، في بساطة تنتهي، تختفي، تموت..

قال الرجل الآخر:

ـ في مثل بساطة إطفاء شمعة.. يموت الإنسان..

ـ تماماً. لكنني أريد أن أعرف.. أيولد الإنسان ليموت؟!.. إنني..

ـ إستغفر الله يا رجل.. لله في خلقه شؤون.. مات رسول

الله وحبيبه.. مات الصحابة من بعده واحداً.. واحداً.. منذ أن وطأت قدما آدم هذه البسيطة والإنسان يموت.. إنها سنّة الله في خلقه.. فلا تكفر..

وصمت الرجلان، وتراءى لحكيم وجه أبيه بعينيه الجاحظتين وشفتيه المتيبستين وبشرته الرمادية الضاربة إلى الصّفرة، ثم جسده الفاره ملفوفاً في قماش الكفن الأبيض وسقف القبر يحجبه عن الدنيا التي أحبّها، فسعى من أجلها وكأنه يعيش أبداً، وأفرزت عينا حكيم دموعاً ساخنة سخيّة، وانعدمت رؤية عينيه أو كادت. بينما اعترت موجة من الصقيع القاتل أطرافه، وبدا له كل شيء تافه، الإنسان والحيوان والعمارات والسيارات والقروض العقارية وزواجه، كل شيء سخيف لا يستحق الاهتمام، وانتفض على صوت جاءه قوياً من الرجل الآخر:

ـ كن رجلاً يا حكيم.. إن بكيت أنت فماذا تركت للنساء؟.. الرجل الحقيقي لا تبكيه الأفراح ولا الأتراح..

وانتبه حكيم إلى أن خديه مبلّلين بالدموع، فمسح براحته خدّيه وعينيه، وحملق في الرجل الآخر ملياً، فبدا له غريباً، بعيداً، حديثه بارد، كلماته ممجوجة سخيفة مكرّرة.

وخطر له أمر زواجه، وخطر له أمر القرض العقاري، ودقّ الأرض بقدميه في قوّة وكأنّه يحتج على تفاهة تفكيره، فلا الزواج

يجب أن يتم، ولا القرض يجب أن يؤخذ، ولا الحياة يجب أن يستمتع بها بعد اليوم، فكل شيء انتهى.

وأحسّ حكيم برغبة جامحة في الارتماء على صدر أمّه كي يبكي، ويبكي، ويبكي، ونهض، واندفع صوب البيت حتى السقيفة، ونادى بقوة:

ـ أمي.. أمي.. أمي..

ولم يجبه أحد، وعاد يصرخ منادياً، ولم يجبه أحد، وكاد يتخطى عتبة السقيفة إلى وسط الحوش، إلاَّ أن عجوزاً منعته، وأخبرته في لطف:

ـ أمك في فراشها، كانت فاقدة الوعي، مصابكم كبير يا بني، ولكن لا تفقدها الوعي من جديد.

وجرّ حكيم قدميه، ومضى صوب المقاعد المصفوفة على جانبي الشارع، وقعد على كرسيه إلى جانب الرجلين، وتناهت إلى أسماع الجالسين أبواق سيارات في الشارع الآخر وزغاريد وضجّة، فقال الرجل الآخر:

ـ اليوم الثلاثاء..

أجاب الرجل:

ـ نعم.

ـ عرس.

ـ نعم.

ـ دنيا الله غريبة.

ـ وسخيفة أيضاً.

الكراسي كانت مصفوفة على جانبي الشارع، والمصابيح الكهربائية الكبيرة متوهجة، والشارع يبدو نظيفاً، والجرار مليئة بالماء في مواضعها، والناس يتوافدون للتعزية، وولولات النسوة تأتي من البيت الكبير ضعيفة واهية بين الحين والحين.

حكيم كان يقعد على أحد الكراسي، يتفحّص وجوه المعزّين، والأطفال الذين يمرحون في طرف الشارع. وسيارة صغيرة نسي صاحبها أن يطفىء أنوارها، وقطّة اضطجعت تحت أحد الكراسي، وبدت حليمة بعينيها الخضراوين ترنو إليه في حبّ، ودقّ قلبه دقّات سريعة متوالية، ورآها تغمض عينيها ثم تعود فترنو إليه بهما في حب أكبر، وهزّ رأسه في عصبية، واختفت حليمة.

وساد في أعماقه يأس قاتل، فحليمة لن تكون زوجته، كل شيء انتهى بموت أبيه، الحب والزواج والعشّ الصغير، لم يعد

أمامه سوى الأحزان والمشاكل والهموم، وجاءه صوت الرجل محدّثاً الرجل الآخر:

ـ أقول لك.. تصور معي هذه المهزلة.. لا تقاطعني.. يولد الطفل، يستقبل بزغرودة يمنح اسماً وعائلة وبيتاً ووطناً، يرعاه والداه فينمو وينمو، ويحلم والداه برؤيته رجلاً عظيماً ويلتحق بالمدرسة، ويتعلّم ويتعلّم ويتعلّم، ويستوعب نصيبه من المعرفة والتجربة، ويصير شيئاً له قيمته، فينتج، ويمتلك كل الأشياء التي يحلم بها، البيت، السيارة، الزوجة، الأولاد، وربما كان من طينة أخرى، فيضع المبادىء وينادي بها وينشرها ويصير صاحبها ورسولها، لكنه بعد كل هذه الأمور، التي تبدأ على هيئة أمل وتنتهي واقعاً معاشاً، يموت، كأي صرصار حقير في بالوعة متعفنة يتلاشى، وينسى، لم يعد يذكر إلاّ إذا كان رجلاً ذا مبادىء نجح في نشرها، إلا أنه على المدى البعيد يُنسى، وكأنّه لم يكن قط.. قط.. أتتصور المهزلة..

قال الرجل الآخر:

ـ هي الحياة يا صاحبي.. وإنني لرجل يكره الفلسفة.. يعمل.. ويقبض.. وينفق على أطفاله وزوجته.. يأكل ويشرب وينام ويضاجع امرأته ويتناسل.. ويحمد الله حمداً كثيراً.. أما ما عدا هذه الأمور فلا يهتم له.. وهذا على وجه التحديد ما أنصحك به.

ولاح أمام عيني حكيم موظف المصرف، بعينيه الذكيتين ووجهه المحنط، وشعره المصقول اللامع، وياقته المنشاة، وربطة عنقه الزاهية الألوان.

قال موظف المصرف:

ـ عد بعد ثلاثة أيام.. أحضر معك خريطة البناء والرخصة والمقاول.. سندفع لك الجزء الأوّل من القرض.

وعاوده يأسه القاتل، ودقّ الأرض بقدميه، فلا القرض ولا العشّ الصغير، ولا حليمة كل هذه الأشياء انتهت، ماتت تماماً كما مات أبوه.

وجاءته طفلة صغيرة همست في أذنه:

ـ أمك.

ومضت تجري، نهض فلحق بها، تخطّى عتبة الباب إلى السقيفة، أمّه كانت تقف هناك، خطا خطوتين، داهمته رغبة مفاجئة في البكاء، ارتمى على صدر أمّه، انخرطا في البكاء، تجمع من حولهما بعض النسوة، وحاولت امرأة أن تنتشله من على صدر أمّه لكنه كان ملتحماً بها، ففشلت المحاولة، قالت امرأة أخرى:

ـ الصبر.. الصبر يا ناس حرام عليكم.

ولكنهما كانا يبكيان بكاءً حقيقياً، فالرجل الذي مات كان أبا حكيم، وكان أيضاً رجل المرأة، ولم يكن يخص أحداً سواهما.

اندفع رجل إلى داخل السقيفة، وانتشل حكيماً في قوة وغضب، ودفعه أمامه إلى الشارع، بينما كان يتمتم بكلمات غاضبة غير مفهومة، وأقعد حكيماً على كرسيه، ومضى، ومسح حكيم براحته دموعه، وتناهت إلى أسماع الآخرين أبواق السيارات والزغاريد في الشارع الآخر.

قال الرجل:

ـ اليوم الأربعاء؟

ـ نعم.

ـ حناء.

ـ نعم.

ـ عرس من يا ترى؟

ـ أي أحد.

3

الكراسي كانت مصفوفة على جانبي الشارع، والمصابيح الكهربائية مضاءة، والشارع يبدو نظيفاً، والجرار مليئة بالماء في مواضعها، والناس يتوافدون للتعزية، والبيت الكبير يسوده الصمت

فيما عدا ضجيج بعض الأطفال الذين كانوا يلعبون في سقيفته.

حكيم كان يقعد على كرسيه. يتفحص وجه رجل عجوز تجاوز الثمانين، وجه مجعد بعينين أتى عليهما العمش، وشفتين متهدلتين، وشعر كثّ أشيب، وأحسّ بحيرة تكتنفه، فبينما يموت أبوه بكل قوته وحيويته، يعيش هذا الكهل المتهدم، أستغفر الله، وأحسّ بشفقة نحو الكهل، فابتسم له محيياً، وبدت حليمة بعينيها الخضراوين ترنو إليه في حب، وخالها في عشّهما الصغير، تمرح، تدندن، تكنس، تطبخ، تعانقه وتغفو على صدره.

لا يمكن أبداً أن يستغني عن حليمة، إن الاستغناء عنها حكم بالإعدام، ثم إن الفتاة تحبّه، فإن تخلّى عنها، لا شك تصدم، ذلك لأنّه يمثل بالنسبة إليها أملاً كبيراً في حياة سعيدة.

أبوه أيضاً ـ رحمه الله ـ كان يأمل أن يزوّجه منها، فحليمة فتاة محبوبة من الجميع.

وقرّر أن يختلس بعض الوقت في يوم السبت، ويمضي إلى المصرف كي يعتذر عن الحضور في الميعاد المحدّد بسبب وفاة والده، سيؤجّل موعد المصرف، وسيعتذر للمقاول، إنه مضطرّ إلى كل هذا، ومضطر إلى تأجيل زواجه من حليمة أيضاً، فتأجيل الزواج لمدة عام ضروري، ألم يكن الرجل الذي مات أباه؟!!.

واستيقظ على صوت رجل يعزّيه:

ـ خلّف لكم البركة.

وانتبه إلى ما يحدث حوله، وجاءه صوت الرجل يحدّث الرجل الآخر:

ـ عندما أتجوّل في شوارع المدينة، أرى أولئك الناس، رجل الأعمال ببدلته الأنيقة وشنطته الجلدية السوداء، الفتاة المراهقة بثيابها الضيقة المتعددة الألوان وعينيها الظامئتين إلى الحب ظمأ رجل المال إلى النقود، الطالب العائد من مدرسته متمهلاً، السائق المجنون المتباهي بعربته الجديدة، عندما أرى كل هذه النماذج المختلفة الأشكال والاهتمامات، أرثي لها، أحسّ بسخافة اهتماماتها، أتألّم لإغفالها تلك الحقيقة المزعجة، حقيقة أنهم سيموتون جميعاً في أية لحظة وينتهون تماماً..

قال الرجل الآخر في حدة:

ـ إسمع.. أنت كافر.. أنت ينقصك الإيمان.. ولأن الإيمان ينقصك فستعيش ما قدّر لك من أيام في عذاب.. أنت بعيد عن الله.. إقترب منه.. آمن به.. دع الأمور له وحده.. إن فعلت.. ستسكنك الطمأنينة... سترى الحياة والموت من زاوية أخرى مختلفة تماماً.

نهض حكيم ومضى صوب البيت الكبير، دخل السقيفة، تناهت إلى أذنيه ضحكات من وسط الحوش، سمع أمّه تعلق

بكلمات لم يتبيّنها، أدار أكرة باب «المربوعة» ودلف إِلى داخلها، أضاء المصباح وحدّق ملياً في خزانة ملابسه وسريره، رفع عينيه إِلى صورة والده، كانت ما تزال في موضعها، خاله يبتسم، طأطأ رأسه والتفت، وجد أمّه تقف أمامه مباشرة، قالت أمّه:

ـ هل انتبهت يا حكيم إِلى من أحضر شيئاً؟

قال:

ـ لا.

قالت الأم:

ـ لم أنتبه أنا الأخرى.. لا بد أن نقيد أسماء الذين موّنونا بالشياه والأرز.. حتى نردّ لهم أشياءهم في الوقت المناسب.

أضافت:

ـ لا تتحرك، أقعد حيث أنت.. سأحضر لك عشاءك.

ـ لا أرغب في شيء.

ردّت أمّه في غضب:

ـ مت أنت أيضاً.. ولكن من الجوع.. كفاك عناداً.. انتظرني.

وأحضرت له أمّه عشاءه، ومضت، وتناول حكيم عشاءه

بشهية، وتنبّه إِلى أنه ترك المعزّين في الشارع منذ فترة، نهض، ومسح يديه، ومضى إِلى مكانه بجانب الرجلين، قعد، وتناهت إِلى أسماع الجالسين أبواق السيارات والزغاريد في الشارع الآخر.

قال الرجل:

ـ ليلة الجمعة الليلة.. ليلة الزفاف..

قال الرجل الآخر:

ـ نعم.

ـ غريبة يا دنيا الله.

وعلت أصوات أبواق السيارات والزغاريد من الشارع الآخر، وأغمض حكيم عينيه.. ورأى حليمة في ثوب الزفاف الأبيض، تختال مزهوة بين رفيقاتها متجهة إِلى العشّ الصغير، ابتسامتها الودود، عيناها الخضراوان ترنوان إليه في حبّ.

حكّ رأسه في قلق، ذلك لأن الزواج لا يمكن أن يتم قبل عام، وتأجيل زواجه واجب. إذ من العار أن يتزوّج بعد وفاة أبيه بشهور، لا بدّ أن ينتظر عاماً على الأقل، فالرجل الذي مات كان أباه..

حب شديد الوطأة

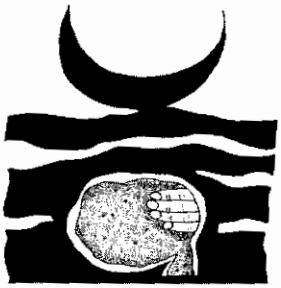

حب شديد الوطأة

كان يحب إحدى الفتيات، ويحبّها جداً، وكان كثيراً ما يأتي لزيارتي ليفرغ كل ما يدور برأسه في أذني، وكانت كل أحاديثه مهما تنوّعت تدور حول نقطة واحدة، هي عين مشكلته التي يعيشها، ويعاني منها الكثير، ويحاول بكل قدراته أن يجد لها حلاً دون جدوى.

كان يريد أن يفهمها بطريقة أو بأخرى أنه يحبّها، وأنه يتأوّه حين سماعه الأغاني العاطفية لأجلها، وأنه يسهر الليل مع خيالها، وأنه يطوف شوارع بنغازي جميعها كل يوم، فقط لينعم منها بنظرة تكون على قلبه برداً وسلاماً إلى حين.

لكنه كان يفشل دائماً في أن يجعلها تفهم حقيقة مشاعره نحوها، شجاعته تخونه في لحظة الصفر، ويتقهقر في ارتباك مخجل كلما حانت فرصته التي تدبرها أو انتظرها.

توقعت أن يدور حديثه ـ عندما زارني آخر مرة ـ حول

محاولاته وفشله، وحالته القلقة السيئة التي تبكي العدو قبل الصديق، غير أنّني رأيت في عينيه لمعة الفكرة الطارئة التي تستجدي كلمة تشجيع واحدة لتنطلق في درب التنفيذ.

قال لي:

ـ أريد أن أزور فقيهاً في «الرويسات» قيل لي أنّه يحقق المعجزات.

ابتسمت، شعرت بأن الرجل يئس من قدراته الطبيعية فرأى أن يستعين بما فوق الطبيعة.

ـ ولم لا؟!.. زره.. لا تدع باباً دون أن تطرقه لعلّك تصل إلى فتاتك.

ـ أود أن ترافقني إليه، أريد أن تكون معي.

ولأنني كنت أتوق دائماً إلى زيارة مثل هؤلاء، ممن يوهمون الناس بأنّهم يسيرون الجنّ والأرواح والشياطين وفق غاياتهم، وافقت في الحال، وارتاح «أحمد» لموافقتي وبدا ارتياحه واضحاً في ارتخاء عضلات وجهه.

كنت أقف إلى جانبه أمام باب بيت «الفقيه»، وكنت أحاول أن أقنع نفسي بأن الفقيه لن يستطيع أن يفعل شيئاً، وأن كل أقواله وأفعاله مجرد ادعاءات لا أساس لها من الصحّة، غير أن إحساساً

بأن «الفقيه» سيقضي حاجة صاحبي ظل يسيطر على تفكيري بطريقة غريبة.

طرق «أحمد» الباب، وانتظرنا دون مجيب، وطرقنا الباب ثانية وثالثة، دون أن نحس بأدنى حركة من خلف الباب، ويئسنا، ورأينا أن نعود.

والتقطت آذاننا طرقعة قبقاب فتوقفنا، والتفتنا لنرى الباب يفتح ليظهر من خلفه عملاق أسمر بجلابية ناصعة البياض طويلة، حليق الرأس، عيناه جاحظتان ـ مخيفتان، شواربه كبيرة سوداء متحفزة.

ولم يقل «الفقيه» كلمة، ظل يحملق فينا دون أن يسألنا، بادره أحمد بالتحية:

ـ السَّلام عليكم.

تأنّى قليلاً، ردّ التحية بأفضل منها بكثير، تساءل في جدية مرعبة:

ـ نعم.. ماذا تريدان؟!.

أجابه أحمد:

ـ نريدك لأجل مصلحة.. لو سمحت..

تنحى عن الباب، أشار إلينا بالدخول، أقعدنا في «المربوعة»، مضى لبعض الوقت ثم عاد، جلس، تساءل:

ـ نعم؟!

وحكى له «أحمد» عن كل شيء، حدَّثه عن حبّه الحزين، رغبته في أن يجعل الفتاة تعرف مدى عشقه وهيامه بها، محاولاته وفشله، أخبره أيضاً أنه يتمنّى أن.. تبادله عاطفته، وأن تكون له زوجة وفق كتاب الله وسنّة رسوله.

وابتسم الرجل في دهاء غبي، وانتظرنا أن يقول كلمة غير أنّه حوّل بصره إلى السقيفة وصاح:

ـ وعليكم السَّلام ورحمة الله وبركاته.. انتظروني في الغرفة الشرقية..

ولأننا على يقين من أن أحداً لم يدخل البيت، وأننا لم نر أحداً في السقيفة، تملكنا رعب لا حدود له، إذ أدركنا أن الرجل يحادث نفراً من الجنّ، وتعلقت به عيوننا تستنجده طمأنينة تنتزعنا من الرعب الذي سادنا، ونهض الرجل، ونظر في عيني «أحمد» وقال له في بحة مخيفة:

ـ تعال غداً ومعك قليل من الرمل.. رمل لم يطأه قدم..

نهضنا وانصرف فكري إلى كيفية الحصول على رمل لم يطأه قدم، استجمعت شجاعتي وسألته:

ـ أين نجده؟ وأنت..

قاطعني في غضب:

ـ عليه أن يذهب إلى البحر ويسبح ويغوص ويحفر بيده اليمنى في القاع ثم يقبض على بعض الرمل ويحضره إلي. . .

قلت له:

ـ إننا في شهر أكتوبر. . وأنت تعرف. .

قاطعني ثانية وقد تضاعف غضبه:

ـ إن أراد. . تفضلا. . هناك من ينتظرني. .

وما أن لفظ عبارته الأخيرة حتى سبقناه إلى السقيفة ليفتح لنا الباب وننصرف.

جاءني أحمد عشية اليوم التالي وبيده صرة رمل، أخبرني أنه زار «الفقيه» وأن «الفقيه» عمل عملاً بالرمل الذي تحتويه الصرّة، وأن على «أحمد» أن ينثر ما بالصرة من رمل على عتبة منزل فتاته، فما أن تتخطّاه حتى تحس بشوق إلى «أحمد» لا يضارعه شوق سوى شوق الرضيع إلى ثدي أمّه، وعرفت أنه عندما يغالب الشوق الفتاة تأتيه حتى عتبة داره دون أن تدري.

وتخيرت لأحمد ساعة مناسبة من الليل ينثر خلالها الرمل على عتبة بيت الفتاة دون أن يراه أحد، وشحنته بالعزيمة والإصرار والشجاعة التي كادت ذاته أن تفرغ منها، فقط لأرى فعل صرة الرمل المسحور.

وتركني على أن أزوره صبيحة اليوم التالي لأعرف ما إذا كانت الفتاة قد وصلته أم أنّها في طريقها إليه، وحينها ابتسم في سعادة وطلب مني ألا أتجاوز طرقة واحدة إذ ربما يكون مشغولاً حين قدومي بفتاته.

. . وجاء اليوم التالي، وطرقت باب بيت «أحمد» طرقة واحدة في موعدي المحدد وأجابتني بعد حين أمّه العجوز بأنه غير موجود، وعندما سألتها عن مكان وجوده، عرفت أن الذين زاروه ليسوا سوى نفر من شرطة الآداب. . للأسف. .

دموع طفل لا يعرف الموت

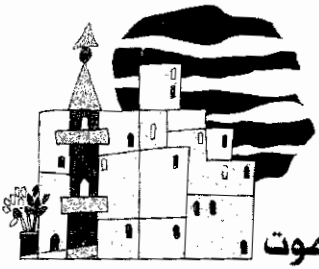

دموع طفل لا يعرف الموت

لم تكن الساعة قد تجاوزت الثامنة صباحاً عندما علا الصراخ في الشارع الصغير، وشرع الفزع ثم الفضول يفتحان كثيراً من العيون والأبواب المغلقة طيلة الليلة البارحة، وما أن مضت ساعة حتى كان حوش منزل «عثمان» يغص بالعديد جداً من النساء وقد تملكتهن هستيرية عنيفة أجيد افتعالها، و أمسك بعضهن بعصيٍّ، يطرق بها في قوة صندوق أرملة عثمان الأخضر المرصع بالقطع النحاسية الصدئة، بعد أن أفرغ ما كان يحتويه من ملابس.

واستيقظ أصغر أطفال المتوفى، أيقظته الطرقات العنيفة وصراخ النسوة وولولتهن، وما تخلل كل هذا من هرج ولغط وكلام أتى من حيث تجمع الرجال أمام المنزل.

ـ فليرحمه الله.. لن يفتقده سوى أطفاله.

ـ لأطفاله رب كريم.

ـ عثمان رجل مبارك وإلاَّ لما مات يوم جمعة..

ـ فلنتدبر أمر الدفن حتى لا يسرقنا الوقت.

وقفز الطفل من على السرير المنزوي في ركن الحجرة التي يشاركه فيها إخوته، ظل واقفاً لبرهة، فرك عينيه، اندفع خارج الغرفة بأعوامه الخمسة، وسرواله الكاكي القصير، وقميصه المقلم المنزوع عن السروال إثر نومة قلقة، وقدميه الصغيرين الحافيين المتسخين، اصطدم بامرأة كانت تتراجع إلى الخلف وتولول، وقع على الأرض، التفتت المرأة، سألها فيما كانت تندب حظّه وما ينتظره من شقاء:

ـ ماذا يحدث؟.. أخبريني لماذا أنتم هنا؟

ـ لمن تركككم؟.. يا لحظّكم العاثر.. يا لأيامكم السوداء القادمة..

ـ لماذا تتجمعن هنا؟.. لماذا تصرخن؟.. لماذا تكسرن صندوق أمي بعصيكن؟..

ـ آه يا صغيري المسكين.. لن ترى بعد اليوم لحظة سعيدة.. ستعيش أيّامك تعيساً مقهوراً.

والطفل لا يفهم شيئاً، ولا يستطيع أن يفسّر شيئاً، والمرأة تنخرط في بكاء حقيقي مرّ، وتحتضن الطفل في حنان صادق، فيما تجول عيناه الصغيرتان عبر الحوش ليرى ابن جيرانهم الصغير

واقفاً عند عتبة السقيفة وبيده كرة قدم صغيرة، فينفلت من بين أحضان المرأة. ويسعى في صعوبة من خلال النساء إِلى أن يصل حيث يقف الطفل الآخر فيبتسم:

ـ علي.. أكنت تلعب بكرتي؟..

ـ جئتكم مع أمي.. وجدت كرتك في ركن الحوش.. لم أجدك.. أخذتها لألعب بها..

ـ تعال.. نخرج ونلعب في الشارع..

وينصرفان إِلى الشارع، ويطلب منهما أحد الرجال أن يبتعدا عن حيث يجلس المعزّون، فيجريان بعيداً ليقفا على مقربة من آخر كرسي مصفوف إِلى الجدار، ويبدآن اللعب.

ويتحرك الجيران والأقارب بسرعة حتى لا يسرقهم الوقت، فيشرعون في إجراءات الدفن، يذهب أحد الجيران إِلى البلدية لاستخراج إذن الدفن، وينصرف ثانٍ إِلى سوق الظلام لابتياع الكفن، ويهرول ثالث إِلى المسجد لدعوة الفقيه للقيام بالواجب.

والكراسي القليلة المصفوفة على جانبي الشارع تستقبل الكثيرين لتودعهم بعد لحظات قليلة، فالناس تكره الموت والحزن والولولة، ولا تأتي للتعزية إِلاَّ مرغمة.

وتمضي الساعات سريعة متوالية، ويأتي رجل بيده إذن

الدفن، وثان يتأبّط قطعة قماش بيضاء، وثالث يعلن عن موعد قدوم الفقيه.

ويلوك الرجال أحاديثَ تافهة عن الشاي المغشوش وطعم لحم الغنم المستورد، والمساكن الحكومية، وشوارع بنغازي المحفورة أبداً، وشركة الحافلات، وأي شيء آخر يستطيع أي من الحضور أن يقول فيه جملة واحدة مفيدة.

عقارب الساعة تطوي الأرقام في جدّ ودأب نادرين، وأصغر أطفال المتوفى لا يعبأ ولا يهتم ولا ينتبه لغير كرة القدم الصغيرة التي يتقاذفها وابن جارهم الصغير.

ويأتي الفقيه، ويختفي داخل البيت ليقوم بالواجب، فيتغيّر مجرى الحديث بين الرجال ويتحدّثون عن الآخرة، وعن ـ منكر ونكير ـ وعن الصراط وطاعة الله، ويعمّهم خشوع مؤقت يزايلهم لحظة خروج الفقيه، ويعاودهم بعدها بقليل، حين يرتفع صوت المؤذن معلناً أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

وتتزاحم الأقدام والجثث والأيدي حول النعش، لتشارك في حمله ولو لمسافة قصيرة حتى ينوبها أجر عظيم، ويظهر أصغر أطفال المتوفى من بين الحشد العظيم، وقد بلّلت وجهه دموع غزيرة، وعلا صوته في نحيب مر يقطع نياط القلوب، وينتبه رجل للطفل ويتألم لدموعه، فيلكز رفيقه مشيراً إلى الطفل:

ـ أصغر أطفال عثمان.

ـ أنفاس الولد تكاد تنقطع من البكاء..

ـ لا ينزل الله بعبده كارثة إلاّ وغلّفها بالصبر..

ـ له الله..

ويمضيان..

والطفل يصرخ.

وتهز الصورة رجلاً آخر يسير في مؤخرة الجنازة، فيقف، ويتحرّك في اتجاه الطفل، يمسك به، يرفعه ويحتضنه ويدس رأسه الصغير في صدره، يمسح بيده على رأسه، يتمتم في أذنه:

ـ لا تبك.. أنت رجل.. عيب أن تبكي..

ـ لا دعني.. أنزلني.. أريد أن أذهب إلى أبي..

ـ كن عاقلاً يا صغيري.. و..

وينفلت الطفل من بين يدي الرجل، غير أن الرجل لا يلبث حتى يمسك به ثانية، فيعود الطفل إلى النحيب ويصرخ:

ـ دعني يا سيدي.. دعني أذهب إلى أبي وأخبره أن علياً فرّ بكرتي ورفض أن يعيدها إلي...

ويبهت الرجل، وترتخي أصابع يده، وينطلق الطفل إلى حيث كان ينام أبوه في الليلة البارحة.

الموجة والرحيل

الموجة والرحيل

الشاطىء كان مترامي الأطراف، لكنه كان يبدو للمتأمّل من طائرة في السماء كحدوة حصان أسطوري، تبعثرت على سطحها مظلات وخيام صغيرة زاهية الألوان لجأ إلى ظلالها المصطافون، بينما تلألأت حبّات الرمل الأصفر تحت أشعة الشمس المحرقة، وبدت مياه البحر الهادر ناصعة الزرقة.

كانت اللوحة في غاية الجمال، داعية إلى التأمّل في هذا الكون الرحب المتفاعل، لكن الذي كان أدعى إلى التأمّل حقّاً، هو ذلك الطفل العنيد، الذي رفض أوامر أبويه باتقاء ضربة شمس قاتلة، ومضى يحفر بأصابعه الصغيرة تجويفاً في الرمال عند حدود أبعد موجة على الشاطىء يخمد هديرها بانتشارها على الرمال.

بدا الطفل مثابراً، وكان يضايقه انهيار الرمال في التجويف، لكن إصراره كان أعتى. فمضى يحفر ويحفر، ويرفع الرمال المنهالة من داخل التجويف فيقذف بها بعيداً إلى أن لامست

أصابعه الصغيرة الرمال الندية، فتفاءلت قسمات وجهه، وما لبثت أن أشرقت بابتسامة عريضة عندما ارتفع منسوب المياه في التجويف، ونجحت محاولته العنيدة.

ـ اسمع يا ولد.. تعال.. خذ.. كل..

صرخت أمه بأعلى صوتها كي يخترق الصوت هدير الأمواج إلى أذني الصغير، لكن الصوت ضاع عندما انطلق صفير مجموعة من الشبان قُصد به المضايقة والاحتجاج.

التفتت إلى حيث التفت بعض المصطافين، وفوجئت للوهلة الأولى بأشقر طويل، وقد أطبق بشفتيه على شفتي فتاته، بينما التصق بها وقوفاً دون أن يعبأ بعيون الفضوليين أو بالضجيج من حوله.

قال رجل مسن، ضخم الجثّة، تكور أمامه بطنه، حاول أن يتحدّث إلي منذ فترة:

ـ هؤلاء النصارى تماماً مثل القطط!!

لم أعلّق، اكتفيت بابتسامة مجاملة بينما استطرد هو في قلق مضحك:

ـ أبداً.. إنهم لا يستحون.. لا يستحون أبداً..

نزع شفتيه من شفتيها، انفك عنها في لطف، التفت إلى حيث

تجمهر عدد من الشبان، حدق الأشقر الطويل في استغراب، حنق الرجل المسن ذو البطن المتكوّر، أضاف غاضباً:

ـ كأنّه لم يفعل شيئاً.. هذا النصراني..

اعتقدت أنني سأستثيره:

ـ شباب.. يا سيدي.. شباب..

لم أفلح، ذلك أنه ابتسم في دهاء، وجر جثته الضخمة يتقدمها بطنه المتكور حتى كاد يلتصق بي، همس بينما كان يغرز عينيه في ساقي رفيقة الأشقر الطويل:

ـ ساقاها.. ساقاها.. لا أروع ولا أجمل منهما رأيت أبداً.

انطلق صوت محتد:

ـ اسمع يا ولد.. تعال.. تعال.. وإلا فإنني..

أجاب الطفل:

ـ حاضر.. حاضر..

إلاَّ أن الطفل لم يستجب للنداء حتى أن أباه تحفز لإحضاره، لكن أمّه رجته بعينيها ألاّ يفعل، فاستجاب على مضض، بينما مضى الطفل يمهد براحته مساحة من الأرض إلى جانب التجويف الذي كان قد حفره، يلتقط بأصابعه الصغيرة العيدان والعلب الفارغة والفضلات المتيبسة فيرمي بها بعيداً، ثم يمهد تلال الرمال

الصغيرة بصبر لا ينفد حتى استوت المساحة التي كان حددها على الأرض، فأشرق وجهه من جديد بالابتسامة العريضة ذاتها، لكن وجه الصغير الجميل كان قد بدأ يتصبب عرقاً، والأب الذي يتابع عناد الطفل على مضض كان قد بدأ يفقد صبره. فجاءت استجابة الطفل لنداء أمّه في الوقت المناسب.

ـ أقعد هنا في الظل.

هكذا قال أبوه يأمره، نظر في عيني أبيه، فرأى أن لا مجال للرفض، انصاع مكرهاً، ارتمى إلى جوار أمّه، تناول شطيرة، كانت أعدتها له، شرع في التهامها بنهم، فترت غضبة الأب، قال:

ـ ما الذي كنت تفعله؟!

ـ حفرت بئراً ومسحت قطعة أرض..

ـ ولم؟!

ـ سأقيم مزرعة وسأبني قصراً..

قالت الأم:

ـ لا ترهق نفسك يا صغيري.. كل.. اشبع.. استرح قليلاً ثم خذ كرتك والعب..

قال الأب:

ـ في كلتا الحالتين يلعب.. يعبث.. في كلتا الحالتين الوقت مهدور ومنته..

قال الرجل المسن ذو البطن المتكور:

ـ هواء البحر منعش ورائع.. لكنه يجعلني أجوع.. إنني جائع جدّاً.

استل عينيه من ساقي الصبية التي كانت تمددت إلى جوار رفيقها، وصوّبهما نحو قفة على مقربة منه، تناول رغيفاً، وثانياً، وثالثاً وكومها أمامه على صحيفة، خاطبني متودّداً:

ـ تفضل..

كانت الأرغفة محشوة بالجبن والتن والهريسة والطماطم وتوابل مختلفة، شكرته فأصرّ، لكنني أقنعته بشبعي، فامتدت يده إلى الرغيف الأول وشرع في التهامه بشهية غريبة.

انهماك ذي البطن المتكور في التهام الأرغفة منحني فرصة التلصص على ذلك الأشقر الطويل، وقد تمدد على بطنه وغرز مرفقيه في الرمال إلى جوار الصبية بينما بدت عضلات جسده النحاسي القوي لامعة تحت أشعة الشمس، وقد تبللت بقليل من العرق، كذلك، منحني فرصة تأمّل تلك الصبية رفيقته، وقد تمددت على ظهرها مستمتعة بأشعة الشمس غير عابئة بتحول

بشرتها اللبنية إلى اللون الأسمر، ولعلها أيضاً كانت مستمتعة بسعادة عارمة، ذلك لأن الأشقر الطويل، كان يداعب عنقها المرمري بأصابعه تارة وبشفتيه تارة أخرى.

اختار الطفل موقعاً وسطاً من الأرض التي كان قد مهدها وطفق يكوم في الموقع ما يستخرجه من رمال مبللة من التجويف، ثم شرع يعمل بأصابعه الصغيرة في الكوم الكبير من الرمال المبللة في عناد وصبر، إلى أن تمكن بعد جهد من تشييد قصر صغير، لكنه شامخ عالٍ، بنوافذه الكثيرة، وشرفاته العريضة، وأبوابه المتعددة، وأشرقت من جديد تلك الابتسامة العريضة على وجهه الصغير.

ـ هع..

تجشأ الرجل ذو البطن المتكور، تقززت، بحثت عن عينيه، وجدتهما مغروزتين في ساقي رفيقة الأشقر الطويل.

قال دون أن يحيد عينيه عن ساقي الصبية:

ـ ألم أقل لك إن هواء البحر يجعلني أجوع.. هع.. الحمد لله.

كانت الأرغفة الثلاثة قد اختفت بكل ما تحتويه، بينما ظلت عيناه بكل ما تحتويهما مغروزتين في ساقي الصبية، أضاف:

ـ لو كانت لي هذه الصبية.. لما أريتها نوراً.. واحدة كهذه مكانها غرفة مظلمة لا تبارحها.. هع.. الحمد لله..

واجتاحني حقد مفاجىء نحو ذلك الشيء المتكور البطن، وقد بدا في سروال البحر قبيحاً على نحو لم ألاحظه منذ البداية، فساقاه وذراعاه طويلة، نفرت منها عروق عديدة ونبتت عليها شعيرات في مجموعات متناثرة، ورأسه حليق، عيناه نهمتان جائعتان، للطعام، للجنس، لكل شيء.. وكبر حقدي على ذلك الشيء المتكور البطن حتى فاضت به عيناي، ولعله لاحظ ذلك لأنه تساءل في جزع:

ـ لا بأس؟!

لكنني لم أجبه بل تماديت في تأمّله متقزّزاً، هذا الشيء العفن المتكور البطن، الذي يجوع فيأكل حتى يشبع، ويظمأ فيشرب حتى يرتوي، ويضاجع برغبة ويضاجع أيضاً بلا رغبة حتى يتكرر فينتشر، ويفزع حتى يطمئن فيأمن.. و.. و.. و..

وما لبثت حتى رأيت كل أولئك الذين من حولي، الطفل العنيد، الفتى الأشقر الطويل، فتاته الصبية الحسناء، أم الطفل وأباه، رأيتهم، جميعاً، ببطون متكورة، ورؤوس حليقة، يلهثون، والعيون نهمة جائعة، وأنفاسي تضيق، والعالم يصغر، والعيون.. العيون.. العيون..

ـ لا يملأ عيني بني آدم إلاَّ حفنة تراب.

هكذا انتزعني ذو البطن المتكور من هذياني، ولم يكن يغرز عينيه في ساقي الصبية لأنّها كانت تلاعب رفيقها في البحر سباحة.

أجلت عيني عبر الشاطىء الكبير، كان كثير من الخيام الصغيرة والمظلات الزاهية قد رفع، بعد أن غادر كثير من المصطافين الشاطىء، ولم يبق على حاله، سوى ذلك الطفل العنيد، يغرز العيدان في حدود قطعة الأرض التي مهدها وبنى في وسطها قصراً، مقيماً بذلك سياجاً حول القصر والمزرعة والبئر.

اندفعت الصبية من وسط البحر تجري يطاردها رفيقها، أمسك بها فأفلتت، وجرت فجرى من خلفها إلى أن أمسك بها، احتضنها، قبّلها في شفتيها، تضاحكا، أسعدني ذلك المرح، إنهما عاشقان حقيقيان، يعيشان الحياة كما ينبغي.

قال ذو البطن المتكور:

ـ سعيد جداً بمعرفتك.. لكنني سأتركك وأرحل.

أجبته مجاملاً:

ـ سعيد أنا الآخر.. كلنا سنرحل..

أحاط الأشقر الطويل خصر رفيقته الصبية بذراعه ومضى،

التقط ذو البطن المتكور القفة ومضى، ونهضت أرتدي ثيابي بينما اختفى قرص الشمس الدامي في الأفق البعيد، وعلت أمواج البحر فتمادى يهدر ويزبد، وفاجأتني صرخة حادة مزقتني بضراوة، فالتفتّ مذعوراً لأجد الطفل ذلك العنيد يندب حظّه، إذ حدث أن دمّرت موجة عاتية القصر والمزرعة، والبئر، أتت على كل شيء فحولته إلى فناء.

قال أبوه مواسياً:

ـ لا تبك.. لا شيء يهم.. هيا بنا..

لكن الطفل مضى يبكي في لوعة حقيقية، ويدق الأرض بقدميه رفضاً، بينما انشغلت عنه أمه بالاستعداد للرحيل غير عابئة، ومسح أبوه بكفه على رأسه في حنان:

ـ قل لي.. قل لي.. هل كنت ستأخذ المزرعة والقصر معك عندما ترحل؟!.

ويبدو أن السؤال قد فاجأ الطفل العنيد الغر، فكفّ عن النحيب وحدّق في عيني أبيه بذهول.

قالت الأم وقد فرغت من الاستعداد للرحيل:

ـ قلت له منذ البداية.. خذ كرتك والعب.. اعبث.. ولا تكترث..

قال الأب:

ـ كلتا الحالتين لعب.. عبث.. وفي كلتا الحالتين الوقت مهدور ومنته..

ثم قال للطفل:

ـ أما قصرك والمزرعة.. دمرتهما موجة أو لم تدمرهما.. في كلتا الحالتين ستخسرهما.. لأنك سترحل.. سترحل يا صغيري..

تساخير

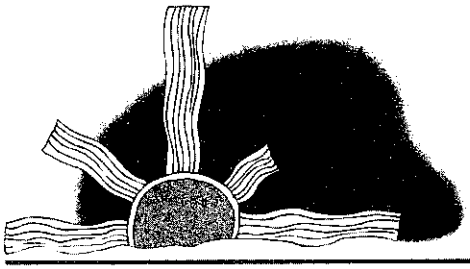

تساخير

الليل كالموت بارد صامت، وأشعة القمر تتسرّب من خلال نافذة موارية، فتكاد تضيء الغرفة الصغيرة المظلمة، ومصطفى مضطجع على سريره، جاحظ العينين، يستنشق هواء كريهاً عطناً، يأتيه محملاً بأبخرة المياه القذرة التي يدلقها الجيران في الشارع.

ـ لماذا؟!

ـ كيف؟!

ـ متى؟!

أدوات حادة تطرق فكره في قسوة فتحدث رنيناً عنيفاً يكاد يصم أذنيه، يرفع رأسه، يلتقط من تحت رأسه المخدّة، ويضعها على وجهه في محاولة يائسة لاستدعائه النوم، يضغط المخدة وكأنّها المسؤولة عن أرقه وسهده، يرمي بالمخدة جانباً، ويجلس في سريره، فيترتب على جلوسه صدور أصوات عن السرير، يخالها مصطفى مزعجة، ويحس بأنه لن يستطيع أن ينام دون

تحديد الأسئلة التي تدور في ذهنه ووضع إجابات مقنعة لها، ويحدث نفسه وكأنه يكلّم جليساً غير مرئي.

ـ لماذا لا أجد عملاً؟!

وفكر.. وفكر.. إنه لا يدري لماذا لم يوفق في الحصول على عمل يدر عليه دخلاً، يساعد بجزء منه أباه الذي لم يعد يكسب من محل بقالته الصغير ما يكفي بطون إخوته الستة الصغار، ويحتفظ بما تبقّى منه لنفسه.

وتنهّد وكأنه ينفث لهباً لا طاقة لجوفه الصغير باحتمال صهده، وامتدت يده إلى الكرسي العجوز الموضوع إلى جوار سريره، يتلمس نصف لفافة كان قد ادخرها أول الليل ليدخنها في صبيحة اليوم التالي.

أولع النار في اللفافة، ثم نهض وأضاء النور، وجلس على حافة سريره، وشرع يبحث عن إجابة مقنعة لسؤاله:

ـ لماذا لا أجد عملاً؟!

لقد تعب من تنميق الطلبات وتقديمها لمختلف المصالح الحكومية والهيئات والشركات، وسئم الإجابة الركيكة التي لا تتعدّى دائماً الاحتفاظ بالطلب والعنوان إلى وقت الحاجة.

وتمر بمخيلته وجوه عديدة لنماذج مختلفة من الموظفين،

ويهز مصطفى رأسه في أسى ليقينه بأنه لا يقل عن أي منهم في شيء، بل إن بعضهم لا يحمل شهادته الإعدادية.

وسرعان ما يكتسح يوم إعلان النتيجة كل خيالاته.. يومها.. قرأ اسمه في قائمة الناجحين، واندفع يجري في سرعة كبيرة ليعلن لكل من صادفه النبأ المفرح، وكانت غايته البيت، لينقل لأبيه وأمّه النبأ العظيم..

دفع الباب وتركه مفتوحاً وجرى باسماً إلى داخل الحوش، ليرى أمه متكورة في أحد أركانه ترضع أخاه الصغير، صاح بها في كلمات حاول جهده أن تكون مفهومة، لأن النشوة التي تملكت مشاعره إثر نجاحه زاد مفعولها حتى بلغ ذروته، وكاد يعجزه عن نطق الكلمات حين رأى أمّه:

ـ أمي.. نجحت..

ورفعت أمه عينيها إليه، وقالت في فتور، وكأن الذي نجح فتكاد فرحته أن تأتي على عقله ـ ليس ابنها:

ـ مبروك..

ثم حولت عينيها عنه إلى أخيه الرضيع في صمت دون أن تضيف شيئاً.

لم يكن ينتظر من أمّه أن تكتفي بلفظ «مبروك» فأدرك أن أمّه

تخفي سراً وإلاَّ لزغردت كعادتها حين كل نجاح، وقامت لتعانقه بحنانها المألوف.

جلس على الحصير إلى جوارها وقال في كلمات واضحة وكأنه يصل حديثاً انقطع للحظة:

ـ نجحت.. رأيت نتيجتي اليوم..

وانهمرت أمه باكية وانزعج لبكائها، فما كانت دموعها دموع فرح، بل كانت تلك التي تضطر المآقي لذرفها لكونها الحل الوحيد لتخفيف ما يحسّ به المرء أحياناً من آلام وليدة مشكلة استحكمت حلقاتها، فعجز العقل عن إيجاد حل لها.

ـ قولي لي.. ماذا هناك؟!

وعزّ على الأم أن تبكي في حضوره، فما عوّدت أولادها حتى في أحلك لحظاتها أن يروها باكية، وامتدت يدها تمسح بطرف ردائها عينيها، في محاولة لتصحيح ما بدا لها خطأ، وقامت لتضع الطفل على السرير الخشبي المتهالك بعد أن استغرق في نوم عميق، ونهض مصطفى من ورائها يلح عليها أن تخبره، وعادا إلى مكانهما، ومصطفى في إلحاحه وحيرته، جلسا، ثبتت الأم عينيها في عينيه، وقد أكسبتها الدموع مسحة جعلته يتعاطف معها إلى أبعد الحدود، حتى كاد أن يبكي هو الآخر.

قالت:

ـ كنا نتمنّى أن تكمل تعليمك يا مصطفى.. لكن..

وسكتت، لكنها عادت لتكمل حديثها تحت إلحاح عينيه..

ـ سيدي الحاج عمران..

وسكتت ثانية، وشرد مصطفى للحظة، رأى خلالها الحاج عمران بجسده الضخم وبطنه الكبير ووجهه الأسمر العجوز وطاقيته الحمراء المتسخة الحافة دائماً، وتذكّر يوم أن أرسله أبوه لآخر مرة لإحضار بضاعة من عنده، وكيف سأله أبوه يومها عما إذا كان الحاج عمران قد قال له شيئاً.

ـ سيدك الحاج عمران جاء لأبيك اليوم وشتمه.

ـ لماذا؟!

ـ أبوك مدين له بثلاثمائة دينار منذ مدة.. وغير قادر على الدفع.. وعلى كل حال.. الرجل محق..

ـ متى جاء؟!

ـ منذ نصف ساعة.. أبوك كان هنا.. ولقد بكى طويلاً..

وأحس مصطفى بحقد كبير نحو الحاج عمران وتحركت داخله رغبة الانتقام من هذا الذي أبكى أحب من خلق رب الكائنات إليه، ولكن «الرجل محق».. التي بذرتها أمّه في عقله، نمت وامتدت فروعها حتى كست كل كيانه.

ـ أبوك يرى أن تعمل يا مصطفى فتساعده..

وتمتم مصطفى في ضيق:

ـ كيف أجد عملاً؟!

وضرب حافة السرير بقبضته في غيظ، وملأ رئتيه بأكبر قدر استطاع سحبه من دخان عقب لفافته الذي كاد أن يحرق أصابعه، وتنهّد، وتأوّه، ثلاثة أشهر، تسعون ليلة كئيبة كهذه سعيت خلالها لإيجاد إجابة مقنعة، وأتوه خلف الإجابة وكأنني غريب في مدينة تشابهت شوارعها، لتلقي بي خواطري في مواجهة ذلك اليوم بكل ذكرياته الحزينة المؤلمة.. وتعاوده إجابة أمه الساذجة على كل أسئلته التي عجز عن الإجابة عليها.

ـ تساخير.. تساخير يا ولدي..

وأطفأ النور، وارتمى على سريره، وأغمض عينيه بعد أن فاجأه إصرار كبير على تنفيذ الفكرة التي تقلقه، منذ أن نبتت بذرتها ونمت في عقله في إحدى لياليه المؤرقة، وأحسّ بأنه بدأ يتهاوى في هاوية لا قرار لها، وبتهاويه أحسّ أنه يقل ويصغر ويتقلّص، وهزّ رأسه وكأنّه ينفض عنه أحاسيسه التي أحدثها قراره، إذ لا يمكن أن يقتنع بالتساخير، ليذل ذاته غبن الانتظار الثقيل، وليطحن الفراغ أيّامه الخاوية.

كانت الساعة الثامنة صباحاً عندما استيقظ مصطفى على صوت طرقات خفيفة على باب غرفته، فرك عينيه وحوّل عن جسده الغطاء، نهض ليفتح الباب وليقول لأمّه في بشاشة:

ـ صباح الخير..

ـ صباح الخير.. القهوة جاهزة.

واغتسل، وارتدى السروال والقميص اللذين يحتفظ بهما للمناسبات، ولمع حذاءه الأسود العتيق، واحتسى فنجان القهوة، وخرج في خطوات سريعة مرحة، وكأنّه يحاول أن يشد انتباهه إلى حركته غير العادية، فيصرف عقله عما لا يريد التفكير فيه.

وجد مصطفى نفسه أمام مصلحة «....» فدخل دون ارتباك أو تردد، وارتقى الدرجات المؤدية إلى الطابق الثاني، ثم سار في ممر طويل بدت أرضيته لامعة، يكاد المدقق أن يرى خياله واضحاً على صفحتها، ووقف أمام مكتب ألصقت على بابه ورقة كتب عليها «المقابلة عن طريق السكرتير»، واحتار مصطفى للحظة، والتفت لينظر خلفه فلم يتبين أحداً وأجال النظر أمامه فرأى كرسياً في أحد الأركان دون جليس، فاطمأن إلى أن المباشر منصرف إلى بعض شأنه، وليس هناك ما يمكن أن يعوقه عن تنفيذ فكرته.

طرق الباب في خفة طرقة واحدة، وانتظر فلم تأته أية إجابة، وعاود الطرق مرة أخرى، وجاءته إجابة وقورة من وراء الباب:

ـ تفضل . .

وأدار الأكرة ودفع الباب ودخل ثم أغلقه من خلفه، وبدا له رجل كبير يجلس إلى مكتب رصت عليه ملفات عديدة، وانتظر أن يرفع الرجل رأسه عن الأوراق التي كانت أمامه ليسأله عن غايته، ولكنه لم يفعل، فرأى أن يحييه ليلفت انتباهه إليه، قال مصطفى في لهجة حاول قدر جهده أن تكون ودية وهادئة:

ـ صباح الخير . .

رفع الرجل رأسه عن الأوراق وكأنه بوغت، نظر إلى مصطفى في غضب وصرخ قائلاً:

ـ من أذن لك بالدخول؟

أجاب مصطفى في ارتباك:

ـ حضرتك . .

صرخ الرجل ثانية وقد بدا غضبه أكثر وضوحاً، بينما امتدت يده إلى زر جرس كان مثبتاً على الجدار الذي يواجه ظهره:

ـ أنا؟! . . بره . . بره . .

وفتح باب جانبي، وظهر من خلفه شاب ببدلة جديدة وحذاء لامع، تبدو على ملامحه لمسات نعمة مستحدثة، قال في كلمات خائفة:

ـ نعم يا سيدي . .

ـ لا أريد أن أقابل أحداً . . مفهوم؟!

أجاب الشاب مرتبكاً:

ـ حاضر . . حاضر . . يا سيدي .

وأحس مصطفى بأنها اللحظة التي يتقرر فيها مصير خطته، وعليه أن يفعل أي شيء لإنجاحها، مهما كلّفه هذا من إراقة ماء وجهه، قال مستجدياً بينما كان «السكرتير» يتحرك نحوه لإخراجه:

ـ أرجوك يا سيدي . . كلمة واحدة فقط . . إنني صديق ابنك عمر . . صديق ابنك أنا . . كلمة واحدة فقط . . أرجوك يا سيدي . .

ولم يجبه الرجل بشيء، فامتدت يد «السكرتير» البضة تدفعه في لين نحو الباب، وأحسّ مصطفى بهوان كبير، وكاد يبكي، ولكنه رأى أن بكاءه لن يزيده إلاّ إحساساً بالهوان والحقارة والضياع .

جر قدميه في إعياء شديد، وكأنّه كان في صراع كبير لا طاقة لجسده النحيل باحتماله، واحتواه الممر، وامتدت يده تلامس الجدار، وكأنّه يحاول أن يطمئن نفسه على أن ساقيه ما زالتا قادرتين على حمله .

وفوجىء بمن يناديه:

ـ يا ولد.. إسمع يا ولد..

والتفت مذعوراً، وراجع الكلمات التي كان قد قالها خوفاً من أن يكون قد تورّط في لفظ يحيله إِلى أقرب نقطة شرطة، وعاد «السكرتير» إِلى مناداته باسماً:

ـ إسمع.. تعال..

وعاد إِلى حيث يقف «السكرتير»، ووضع «السكرتير» يده على كتفه وقال له:

ـ سيدي الحاج يريدك..

وفتح الباب، ودخلا، ورفع المدير رأسه عن أوراقه وأشار له بيده أن أجلس، وتحرك مصطفى في خطوات بطيئة، وارتمى على كرسي بجوار المكتب، وانصرف «السكرتير» بينما سأله الحاج في شبه ابتسامة:

ـ هل قلت إنك صديق ابني عمر؟!

ـ ن.. ع.. م..

ـ حسناً.. ماذا تريد؟!

لكن كل ما كان مصطفى قد أعده من كلام منذ أول مرة راودته فيها هذه الفكرة، كان قد تلاشى تماماً على أثر المقابلة السيئة التي

فاجأه بها حظه، وبدا عاجزاً عن النطق، وحاول جمع شتات فكره ليقول أي شيء يعني طلب العون في الحصول على عمل.

ولكن دون جدوى، وعزّ على نفسه أن يقف هذا الموقف الذليل الذي ما كان يجب أن يقفه حتى لو كلّفه الأمر حياته.

قال المدير في نفاذ صبر:

ـ تكلم.. تكلم يا ولد..

ولم يتمالك مصطفى عبراته فبكى، وعزّ على نفسه أن يبكي فتمادى في بكائه، وغالبه الإحساس بأنه طفل صغير، لا حول له ولا عقل ولا تدبير، تافه ضائع، فعلا نحيبه، ولم يلحظ أن الحاج قد وقف وجاء ليجلس على الكرسي المواجه لكرسيه إلاَّ بعد أن أحسّ بيده تربت على رأسه في رفق:

ـ قل لي يا ولدي.. طمئني.. ماذا هناك!؟

وقال مصطفى في كلمات أكل ارتعاش صدغيه أوائل حروفها:

ـ عائلتي فقيرة، ولأنني لا وساطة لي لم أستطع الحصول على عمل.. جئتك لتساعدني فطردتني.

ونهض محاولاً الذهاب، لأنه لم يعد في مقدوره احتمال الموقف ولكن الرجل استوقفه:

ـ حسناً.. اسكت.. عيب.. الرجل لا يبكي.. اقعد..

وضغط على كتفه في رفق ليجلس فجلس، وعاد الرجل إلى مكتبه وامتدت يده إلى زر الجرس فجاء المباشر، أمره بإحضار فنجان قهوة ثم قال لـ «مصطفى» في لهجة ودّية:

ـ هل سبق لك أن تقدمت بطلب إلى مصلحتنا؟.

أجاب مصطفى وقد تسرب إليه شيء من الأمل:

ـ نعم.. منذ شهر..

ونادى «السكرتير» وطلب منه إحضار الطلب المقدم من مصطفى، وذهب «السكرتير» لإحضار ملف الطلبات، وحاول مصطفى أن يقول شيئاً يحيد به ذلك الصمت السخيف الذي ساد الجو، ولكن «السكرتير» عاد بالملف ليضعه أمام الحاج:

ـ اسمك؟!

أجاب مصطفى في أدب متكلّف:

ـ مصطفى حميد..

وكتب الحاج على حاشية طلبه «يوافق على تعيينه كموظف بعقد مؤقت ابتداء من أول الشهر»، وأعطى «السكرتير» الملف، ونظر إلى مصطفى باسماً:

ـ مبروك.. تعال بعد أسبوع لاستلام العمل..

وبلغ الارتباك بـ«مصطفى» مداه، وأحسّ بشيء بارد يجري في مفاصله، ثم بحرارة شديدة تعم كل وجهه، وأخرسه الارتباك الذي أحدثته كلمات «الحاج» له، وحرّك شفتيه في محاولة شكر، ونهض وفكّر في أن يعانق الحاج، ثم سخَّف فكرة معانقته.

ـ بارك الله فيك..

وامتدت يد الحاج إليه تصافحه فضغط عليها بشدة، وأحس بنشوة تعتري كيانه، وبكاهله يبدو خفيفاً وكأن أثقال الدنيا قد أنزلت عنه، واستدار متجهاً إلى الباب في خفة قائلاً في صوت مشحون بشتى الانفعالات:

ـ السَّلام عليكم.

واحتواه الشارع، وبدأت أفكار ذات طابع آخر تدور في سرعة برأسه، فبجرة قلم من إنسان مثله تقرر مصيره، وبجرة قلم من إنسان لا يختلف عنه، يتقرر مصير البشرية كلها في هذا العالم الكبير المشحون بالبشر والمشاكل والبؤس والسعادة والفقر والغنى.

وتذكّر أمّه، ومدى الفرحة التي ستبالغ في إظهارها متى عرفت النبأ السعيد، وخالها بوجهها الطيب تهز رأسها في إيمان وطمأنينة قائلة:

ـ تساخير . . يا ولدي . . تساخير . .

وهزّ رأسه في أسى نفياً، لكنه عاد فابتسم بمرارة وأسرع في خطاه لينبىء أمه .

سيدي معتوق

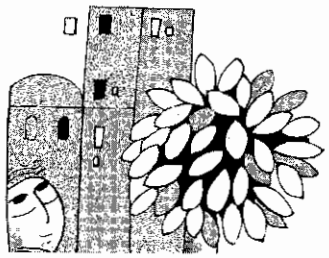

سيدي معتوق

«سي معتوق» رجل قصير القامة، يبدو في ملابسه المتنوعة ـ من إفرنجية ومحلية ـ ضخم الجثة، عيناه توحيان بالطيبة والبساطة، بشرته تكسوها سمرة خفيفة فتشكل مع تقاطيع وجهه سماحة الوجه العربي الأصيل.

كل أطفال مدرسة الحرية الابتدائية يعرفون «سي معتوق»، بل حتى مدرسوها وناظرها يعرفونه معرفة طويلة ووثيقة، ولا شك أن بعضهم يذكر أنه وقف في طفولته أمام طاولة «سي معتوق» وقد اصطفت عليها الأكواب الزجاجية، ليبتاع لنفسه بقرش «سحلباً» وقبل دخوله الفصل صباحاً.

و«سي معتوق» لم يتخل عن مكانه من المدرسة منذ سنوات طويلة، راضٍ بدخله المحدود الذي يؤمّنه له بيع «السحلب» والشطائر لأطفال المدرسة، يعيش حياة المؤمن القنوع، الذي لا يتمنّى على ربه غير أن يعيش فقيراً، ويموت على فراش الحلال

فقيراً، ليحشر يوم القيامة في زمرة الفقراء.

ورغم كبر سن الرجل، ورغم الشعيرات البيضاء التي تكاد تأتي على أسود شعر ذقنه ورأسه، ورغم الإعياء الشديد الذي يكاد يهدّه، رغم كل هذا، لم يحدث أن غاب «سي معتوق» يوماً واحداً عن عمله ـ على ما أذكر ـ أو تأخر في مجيئه صباحاً.

لست أدري كنه السبب الذي يجعلني أشفق على «سي معتوق» من برد الصباح القارس، وتسلله إلى عظامه التي أتصورها دائماً رخوة هشّة، غير أنني فسرت هذه الشفقة بأنّها وليدة الألفة التي تشد كثيراً من أبناء بنغازي إلى هذا الرجل، وتجعلهم يحيونه متى رأوه ويبتسمون له كما تشدني إليه، وهذا فسر شيئاً آخر طريفاً، ولعله يبدو مضحكاً، فثمة شيء في داخلي يجعلني أتسلل من عملي خلسة إلى «سي معتوق»، لأبتاع شطيرة أو «سحلبا» بين حين وآخر، وكأنني أريد بفعلتي هذه أن أعود إلى تلك الطفولة الرائعة في مدرستي الابتدائية.

قد يكون السبب غير هذا، إذ ربما تكون رغبتي في الحصول على نصيبي من فيض حنان «سي معتوق» الأبوي الصادق الذي يغلف به كلماته الودودة وتفيض به عيناه الطيبتان، هي السبب، غير أنني، على أية حال، كثيراً ما أزور «سي معتوق» وأحاوره:

ـ سي معتوق.. كم عدد أولادك؟

لاحظت أن «سي معتوق» قد فوجىء بسؤالي، ولست أدري السبب الذي جعله يفاجأ.. أهو سوء التوقيت؟!.. أم نظرته إلي التي أشك في أنّها تغيّرت، فربما ما زال يراني طفلاً صغيراً، يقف أمام طاولته العتيقة ليبتاع «كوب سحلب»، أو رغيفاً محشواً بالمدمس.. ربما كان يراني كذلك، رغم الشعيرات القليلة التي بدت تغزو صفحة وجهي، دون أن أقاومها لإظهار رجولتي وتأكيدها..

نكس «سي معتوق» رأسه، وكأنني أخجلته بسؤالي، وفكرت في أن أوضح له غايتي من السؤال، فما أريد الإفصاح عنه هو، لو أن له أولاداً، فلمَ لا يريح نفسه من عناء الوقوف طيلة اليوم المدرسي، معرّضاً نفسه لمفعول التقلّبات الجوية من برد ومطر؟ مما يؤثّر في صحته بفعل سنّه..

امتدت فترة صمتي زمناً خلته طويلاً، فبدا الأمر محرجاً لكلينا.. وقررت أن أقول له ما يجول في خاطري غير أن «سي معتوق» رفع رأسه، وقد ضاقت عيناه، وكأنه تعمد أن يمنع دمعة ـ جاد بها وجدانه ـ من الانحدار..

ويبتسم «سي معتوق» لتخرج الكلمات من بين شفتيه كسيرة ضعيفة:

ـ آه.. أنتم كلكم أولادي.. كلكم..

بدأت أحسّ أنني قد أسأت إلى «سي معتوق» فلا شك أنني نكأت جرحاً قديماً، فترتب على فعلتي هذه الانفعالات التي تختلج بها ذاته.

السكوت في بعض المواقف يجيء أدق تعبيراً عما تختلج به نفوسنا، وتزدحم به رؤوسنا من أفكار، وكان سكوتنا يجسم معانِيَ كثيرة وكبيرة وهائلة، صمتي كان يبدو وكأنّه اعتذار رقيق أقدّمه لـ«سي معتوق» ليغفر لي سؤالي الجارح الذي كدّر صفوه، فما كان يجب أن أسأله، فلو كان له أولاد لأراحوه بالتأكيد، أما صمت «سي معتوق» فكان صمت الإنسان العاجز عن التعبير عما بداخله من انفعالات وأحاسيس وأفكار، غير أن ما كان يبديه صمته لأقل الناس فهماً، هو مدى الألم الذي كان يعانيه الرجل في تلك اللحظات.

رأيت أن أبدّد ذلك الصمت الرهيب بأن أفعل أي شيء، إلاَّ أن «سي معتوق»، على ما يبدو، لاحظ حيرتي، فبدأ يغالب الألم بابتسامة حزينة، حاول بها أن يجيرني من ارتباكي:

ـ لم أنجب.. لم أنجب أطفالاً على الإطلاق..

قالها وكأنّه مجبر على قولها، ووضعني قوله هذا في حيرة أكبر، إذ لم أجد ما أقوله له بعد إجابته بأنه لم ينجب على الإطلاق، هل أسأله فيمن يكمن العيب؟! إنه سؤال محرج له

وبالتأكيد آثاره أقسى وأسوأ من آثار سؤالي الأوّل.

كل ما تعلمته في حياتي من كلمات المجاملة، التي يقولها الناس في مثل هذه المواقف، كانت تأبى أن تتحرّك من اللاشعور إلى منطقة الشعور، لتحيد عني ارتباكي وسلبيتي، ولتعطي الرجل شيئاً من الطمأنينة.. وشعرت فعلاً بأنني ما زلت طفلاً.

«سي معتوق» يمسك بكوب زجاجي، ويلتفت ليضعه في إناء مليء بماء تتصاعد منه الأبخرة، ثم يعمل يده بالكوب في الإناء فيخرجه نظيفاً، ليضعه إلى جانب الأكواب الأخرى المصفوفة على الطاولة.

ـ أين تسكن يا «سي معتوق»؟

ـ في بيت صغير في «بن يونس».. ما زلت أبنيه حتى الآن... أعيش فيه أنا والعجوز.

ويتحرك «سي معتوق» ليأتي بمريلة بيضاء معلّقة بمسمار إلى الحائط تحت أشعة الشمس، وعندما يعود ليقف بجواري، يلف المريلة حول وسطه ويقول مبتسماً:

ـ توافر لدي بعض الوقت فغسلتها..

ثم يستطرد بعد أن يغمز بعينه:

ـ خير من أن أتعب العجوز في غسلها!...

ـ يبدو أنّك تحبّها كثيراً.. حتى أنّك تخاف أن تتعب.

ـ إيه يا ولدي.. أنتم ما زلتم صغاراً.. عشرة عمر.. وللعشرة حقّها.. ثم إن خالتك عائشة بنت ناس...

ـ.....

ـ هل حدث أن سمعت عن امرأة تسعى لتزويج رجلها...؟

ـ ولم تريد أن تُزوجك؟

ونكس «سي معتوق» رأسه، وأدركت أن آلامه قد عاودته من جديد، ولمت نفسي على أسئلتي الصبيانية المؤلمة.

قال:

ـ منذ زمن طويل قال الأطباء إن خالتك عائشة عاقر.. لكن.. بصراحة.. لم أكن أقدر أن أتخلّى عنها.. امرأة تحبّني.. صابرة على خيري وشرّي.. عندي خير من ألف ولد..

كانت الكلمات تنساب من بين شفتيه وكأنّه يتحدّث إلى نفسه، كان يبدو وكأنّه يقول شعراً رقيقاً ساحراً، تنبع معانيه من فيض حب كبير لا ينتهي، كانت عاطفته تجاه «عجوزه».. تفصح عن وجودها وتؤكده، وتعلن عن دورها في سعادة «سي معتوق».

أفاق الرجل لنفسه، بدا مرتبكاً للحظة، ثم تحرّك ليقف في مكانه خلف الطاولة، وأدركت أنه يحاول أن يتشاغل بعمل أي

شيء، فعيناه كانتا تذرعان مكانه الصغير المتواضع بحثاً عن أي شيء يعمله.

أتى صراخ طفل من فناء المدرسة، وبينما بحثت بعيني في الفناء للوقوف على مصدر الصوت، كان «سي معتوق» يجري في شيخوخة باتجاه زاوية معينة، ليقف أمام الطفل ويركع إلى جواره فيحادثه، ثم تمتد ذراعاه لاحتواء الطفل وضمّه إليه.

عندما وصل إلي، كان قد مسح دموع الطفل الصغير، وبدأ في ترتيب كتبه التي تبينت منها أن الطفل في السنة الثانية الابتدائية، أجلس الطفل على كرسيه العتيق، وبدأ في إعداد شطيرة «بالمدمس» له، ونظر إلي ضاحكاً:

ـ يا سيدي.. أضاع القرش الذي أعطاه له أبوه، فرأينا أن نبيعه شطيرة على أن يدفع عندما يكبر ويعمل!.

ودقّ الجرس، وتدافعت جموع الأطفال بوجوهها البريئة الحبيبة على «سي معتوق» وبدأت يداه تعملان في الشطائر وأكواب السحلب، بينما تحوطهم عيناه الودودتان بذلك الحب والحنان الكبيرين، وصدره يتسع لكل طلباتهم وضجيجهم:

ـ خبزة مدمس..

ـ حاضر..

ـ سحلب . .

ـ حاضر . .

ـ خبزة وتن . .

ـ حاضر . .

وتركت «سي معتوق» في جنته البريئة الرائعة، في حبّه لأطفاله، وتساؤلات عن رقة «سي معتوق» وعظمته تزدحم في خاطري . . ترى هل سيقف أحد هؤلاء الأطفال يوماً ليتحدث مع «سي معتوق» حديثي معه منذ لحظات؟

وأحس بما هو أكبر من الشفقة على سي معتوق . . أحس بحب كبير نحوه، أتمتم وكأنني أريد أن أؤكد له حدسه:

ـ أيوه . . كلنا أولادك يا «سي معتوق» . . . كلنا أولادك . .

فهرس

بندول الزَّمن 9
حوار مزدوج 19
الثَّمن 29
أقوال شاهد عيان 39
زغاريد الملائكة 49
ربما تشرق الشمس غداً 61
الرَّجل الذي مات 75
حب شديد الوطأة 89
دموع طفل لا يعرف الموت 97
الموجة والرَّحيل 105
تساخير 117
سيدي معتوق 133